عطلة فارسية

في هذه المقالة أنوي أن أطوف بقرائي في جولة في فارس بتعليقات مشتتة عن أحوال هذا البلد، عاثر الحظ، عشية صحوته المباغتة في يوم أصحى من أي يوم عرفه لقرون طويلة. تلك الصحوة كانت لمحو النفوذ البريطاني من البلاد للأبد - إن كان بإمكاننا وإلى قدر معلوم عد التطورات في العقدين الأخيرين اللذين كانا قد مضيا بمثابة توقع بما قد يكون عليه المستقبل[1]. ويمكن للمرء أن يردف قائلاً، إنه بزوال " المساعدة " البريطانية لبلد ضعيف فقير، فقد زال أيضاً هم منافس بريطانيا الذي كان من قبل محل ترحاب أيضاً - الدب الذي كان من قبل يتآمر مع الأسد ليقتسما الفريسة، ولكنه، فجأة، وتأثراً بتحول عجيب، غدا منقلباً على حليفه المنزعج، وإلى حد ما نادماً على سوء معاملته لضحيتهما المشتركة. إن فارس لم تخسر شيئاً برحيل أصدقائها، ولكنه كان عليها أن توصلهما إلى الباب. فكان عليهما كليهما أن يتركاها، غير محمية تماماً من أخطار مستقبل مجهول.

إنها إلى حد ما تدين بشيء من الشكر لثوار ما بين النهرين، الذين كانوا أول من فتح عيني بريطانيا العظمى لعظم التزاماتها الحربية في بلد شاسع، مستقل اسماً. إني لا أنوي أن أناقش في هذا المكان اتفاقية ١٩١٩م، الإنجليزية - الفارسية، للسير بيرسي كوكس وقولته المشهورة بأن على فارس " أن تغلي في عصارتها " إن لم تعجبها الاتفاقية وأظهرت عدم رضاها بعدم اعتمادها لها.

---

(١) وكما يعلم القراء فإن أحداث ١٩٤١م قد أعادت عقارب الساعة للوراء مرة أخرى. (المؤلف).
في عام ١٩٤١م، انضم رضا شاه إلى جانب ألمانيا أثناء اشتعال الحرب العالمية الأولى، لذلك احتلت الجيوش البريطانية - السوفيتية إيران، وأرغمت رضا شاه على التنازل عن العرش ومغادرة البلاد. (المراجعون).

ولاشك أن كوكس كان يؤمل في استمرارية النفوذ البريطاني الواسع والتدخل في شؤون فارس. ولكننا علينا اللجوء للسير آرنولد ويلسون، الذي كان في ذروة عمله كنائب للقنصل، لنظرة في المستقبل الذي كان يختمر لذلك القطر، كعضو في تلك المجرة العظيمة للشرق الأوسط الذي سيكون حزاماً يربط في وسط الإمبراطورية البريطانية. فكان مقدراً لبغداد أن تصبح مركز الكواكب الجديدة، معسكراً حربيّاً ضخماً بسيارات مصفحة وطائرات، لتبرز نجوماً سياسية جديدة تحت حراسة حربية مناسبة لأقصى نواحي القبة الزرقاء المكتشفة حديثاً. لاشك أنه كان حلماً رائعاً، ولكنه حلم على كل حال، من ذلك النوع الذي يصحو عنه المرء ليجد أنه لايزال امرءاً فانياً في عالم عادي جداً، فيتساءل عما كان قد أكله في العشاء ليجلب مثل ذلك الوهم.

وفي نظرته في المشكلات الناجمة عن تسريح الجيش - وهو أمر كان عليه مواجهته، مهما قل حبه للفكرة، مراعاة لملل بريطانيا العظمى من الحرب - فإنه افترض أنه، مهما تكن الترتيبات النهائية التي تقرر لوادي الرافدين، فإن السيطرة البريطانية القوية ستكون مظهراً مهمّاً فيها. وهذا يعني الاحتفاظ، ولمدة طويلة، بقوة حربية مؤثرة لمواجهة أية اضطرابات في أي مكان في الشرق الأوسط. وهذه يمكنها أن تحدث في مكان قريب كالموصل أو بعيد كأرمينيا والقوقاز، ولكن بريطانيا ستكون هناك، أينما كانت. فالسلام الأوربي كان في الميزان، وأي ميلان في ذلك الميزان بمشاكسة في فارس، مثلاً، سيغمس أوربا مرة ثانية في هاوية الجحيم. ولكن مع قوة مثنية في بغداد، والتي ستكون المركز العصبي لشبكة واسعة من الخطوط الحديدية، فإننا لن نقدر على مساعدة الدولة الجديدة التي ستنشأ في الشرق الأوسط على الاستقرار

فحسب، ولكننا سنضرب اليوم في حلب وغداً في شرق القوقاز أيضاً. إن قوة بغداد ستساعد بريطانيا في التصرف كوكيل مخول لكل الدول المتحضرة في العالم في تهدئة الحزام المتوحش بين القسطنطينية والهند وتثبيته. إن أية إصلاحات تحت الرعاية والإشراف الأوربيين لا يرجى حدوثها في فارس وتركيا وأرمينيا بلا دعم من قوة عسكرية. إن كل دول الشرق الأوسط سترى في بريطانيا، وبشريطة أن تكون قوتها الضاربة مؤثرة، لا المؤهلات الضرورية للوصاية الحضارية المنفردة في إدارة شؤونهم فحسب، وإنما إيثاراً، وتسامحاً واسع الأفق، يبحث عنهما المرء في أماكن أخرى بلا جدوى. إنها صرخة طويلة من بلاد الرافدين لعام ١٩١٩م - ١٩٢٠م إلى ميونخ ١٩٣٨م، تلك التي دفعت عرافاً أعظم من ويلسون - لويد جورج - ليعلن أنه ليس ثمة دولتين يمكنهما أن تحذوا حذو إنجلترا هذه.

وعلى أي حال، كان الإطار الطموح الذي كان ويلسون قد هيأ فيه ذهنه لدراسة الحاجات الخاصة لمختلف الأراضي التي كانت ستصبح في فلكه. فهو قادر على الحديث عن فارس بخبرة شخصية واسعة ومعرفة ذاتية دقيقة. فكانت تلك البلاد من طرف لآخر في أرجائها الواسعة تعج بالقوات البريطانية والجنود المحليين تحت إدارة ضباط بريطانيين. فالمحافظة الجنوبية من عربستان كانت تحت السيطرة الإدارية البريطانية الفاعلة والتامة. وكانت أشعة الخير البريطانية تسقط على شعب غير منظم ومضطهد من مشهد في الشمال حتى بوشهر في الجنوب. لقد كانت العاصمة طهران متصلة ببغداد - تحسباً للغد المشرق - بطريق سيارات من الدرجة الأولى تحميه في مسافات متباعدة قوات بريطانية لخدمة اتصالات الجيش البريطاني، الذي كان وجوده في قلب البلاد ضمانة

راسخة للاستقلال الفارسي. وإن عدداً كبيراً من السيدات البريطانيات أظهرن استحسانهن لجو لطيف لبلد جميل بقطعهن تلك المسافة الطويلة من إنجلترا للحاق بأزواجهن أو إخوانهن في كرند. ولاشك أن فارس لن تكون إلا شاكرة لهذا البشير بحركة سياحة مستقبلية قد تملأ جيوب مرشديها وسماسرتها.

ولكن كل هذا التنظيم المستعجل والجاهز للسعادة الفارسية - الذي كان قد عمل على عجل في ظروف الحرب - ربما كان بالإمكان إقامته على أساس أفضل وأدوم. فالإجراءات في هذا الخصوص كانت قد اقترحت، كما كان ويلسون مستعداً لدفعها لمرحلة التنفيذ. لقد كان مسألة معلومات عامة أن سلم المناطق الوسطى - شيراز وأصفهان وغيرهما - ورفاهيتها يعتمد اعتماداً كبيراً على قوات الأمن التي بالرغم من تنظيمها وإدارتها بأيدي ضباط بريطانيين، لم تكن ذات فاعلية للمهمة المتصورة لها. فالأرض حولها وعرة وجبلية، وقبائلها لاتبدو أبداً مدركة للمنافع التي كان الجنود البريطانيون المعنيون حريصين على إسباغها عليهم. ولكنه لن يكون من المتعذر أو المكلف - وفي المدى البعيد، بالطبع، ستكون أرخص - إصلاح هذه التقصيرات المعترف بها. وما أروعها من لفتة أن تواجه الحكومة الفارسية بهدية مفاجئة من الطائرات، بطياريها وموظفيها الأرضيين وكل المعدات الضرورية لمختلف المطارات والمهابط. ففي الشتاء يمكن جمعها في بوشهر (محطة مهمة على الطريق الجوي الإمبراطوري في المستقبل)، بينما في الصيف يمكن نقلها إلى سحر شيراز. وبطبيعة الحال، فإن الحكومة الفارسية سوف تبدي مظاهر التردد في قبول هدية سخية كهذه على حساب الخزانة البريطانية. ولكننا يمكننا أن نوضح توضيحاً كاملاً أننا لانتوقع أي شيء في المقابل. وعلى العكس، فإنه سيكون بإمكانهم فوراً

تسريح شرطتهم عديمة الفائدة والمكلفة، وتسريح جيشهم أيضاً، إن شاءوا- ربما الاحتفاظ بفوج أو فوجين للأغراض التشريفية. وسنتولى عنهم كل أعمالهم الحربية والأمنية بلا مقابل. أما القبائل المتمردة فإنها ستهدأ حالاً حين تجرب قنبلة أو اثنتين.

إني لم أستطع أبداً أن أفهم لماذا لا تستجيب الدول الصغرى بقدر أكبر من اللطف للاستعداد الواضح من الدول الكبرى، الأغنى، والأقوى، والأكثر إمكانات للقيام بكل عملها نيابة عنها. فلعل ترددها عائد لا لشيء أكثر من التعلق الإنساني بلعبة العساكر. ولعلهم أيضاً مدفوعون برغبة صادقة في عدم الإسراف في استغلال عاطفة حب الخير لدى القوى الكبرى. ففي هذه الحالة بالذات، فإن عرض ويلسون السخي لم يلق قبولاً أبداً من حكومة الهند. أولاً - وطبيعيّاً، فإن أولي القربى أولى بالمعروف - إنهم رفضوا تعريض أرواح الطيارين البريطانيين للخطر في مخاطرة كهذه. إن أي هبوط اضطراري في تلك الأرض الجبلية غير الصالحة للسكنى يعني القضاء بفناء الطيار والآلة معاً. ولتجنب مثل هذه الخسارة سيكون من الضروري توفير طائرات من الدرجة الأولى فقط، وسيكون ذلك باهظ الثمن. ثانياً، لقد رأوا - وفي هذا ينبغي الاعتراف بأن حكومة اللورد تشلمزفورد أثبتت أنها متقدمة على الرأي العام بربع قرن على الأقل - أن هناك بعض الحجج الأخلاقية ضد استخدام القوات الجوية كوسيلة من وسائل الأمن. إذ كيف يميز المرء بأية وسيلة ما بين الأبرياء والمجرمين من الجو؟ لقد رد ويلسون عليها من الخبرة التي كان قد اكتسبها في بلاد الرافدين وشمال غرب فارس بأن رجال الجو لايعانون أكثر مما يعاني المشاة في التمييز بين المجرمين والأبرياء - ومن الواضح أنه يعني أنه لا أحد منهما

استطاع أو يستطيع أن يفعل ذلك عملياً، وإن كان قصد أن يفهم منها أن الطيارين قد اكتسبوا حاسية خاصة لم تلق أية صعوبة في مثل هذا التمييز. ولكنه على أي حال، لم يغامر بكشف سرهم، فإن كان لهم سر، فإن المرء يمكنه القول إنه لم يبلغ طياري زماننا.

اعتماداً على التجارب الأخيرة في حضرموت وفلسطين. وخلال المناقشة ظهر أنه إن كان المسئولون راغبين في مثل هذه التجربة، فإن الأساسات الضرورية للسيطرة الجوية على فارس موجودة وبحجم يثير الدهشة. فمع بغداد كمصدر، فإن هناك سرباً من الطائرات مقره في قزوين للعمل الفعال يغطي سنه، أرومية، وتبريز وباكو- وفي واقع الأمر. وهذه الآلات كانت رهن إشارة الضباط السياسيين المنتشرين في المنطقة لأغراض إدارية أو تأديبية. وبالمثل، فإن الطيران من الموصل يسيطر على الجزء من كردستان المجاور لغرب فارس. فالمهابط، وبأحجام متعددة، كانت قد أنشئت في كل " المناطق المحتلة "، بما في ذلك باكو، وطهران، وعربستان، ومناطق فارسية كثيرة أخرى. إن أية محطة فيها ضابط سياسي بها مهبط مزود تزويداً كاملاً بالوقود، والزيت والضروريات الأخرى. إنه، في واقع الأمر، تنظيم رائع، قادر على التوسع بحرية. وإنه لغريب فعلاً أن حركة ويلسون الجديدة لم تلق رد فعل حار. ولعل تفسير ذلك هو الضجر من الحرب بصفة عامة، أو لعله في بعضه يعود إلى المد العالي في نهر الفرات بالثورة.

فالصيحة إذن كانت للانكماش لا للتمدد. لقد هربت سيدات كرند إلى بغداد، وغارت قرون الجيش البريطاني سريعاً. ففي الوقت الذي ذهبت فيه في زيارة وذلك في عطلتي في يوليو، ١٩٢١م، لم يكن هناك جندي بريطاني واحد على الطريق ما بين قصر شيرين وطهران. لقد كانت كرند خراباً محزناً،

من بيوت مفككة، أزال منها بدو المنطقة كل شيء خشبي لإطعام نيران مخيماتهم في جبالهم الباردة. كما أن الحكومة الفارسية كانت تجبي رسوم طرق باهظة في كل حاجز - بصفة عامة، في كل بلدية - على الطريق الذي ساء بالإهمال المتعمد. لقد كانت هناك عدة اتجاهات أخرى كان يمكنها امتصاص الرسوم المجباة. فطريق السيارات الكبير قد أصبح ذكرى محزنة لأولئك الذين كانوا قد بنوه، وهنا وهناك رأيت دموعاً - دموعاً فعلية - في عيون كثيرين ممن يشكون من عدم وجود زبائن يشترون فاكهتهم ومصنوعاتهم بأسعار تفوق بكثير قيمتها في السوق. فلا يعتقد أحد أن الفرس فرحوا بالجلاء عن بلادهم. بل العكس ! إنما هو قطاع ضئيل نسبيّاً ممن كنا نسميهم " المثقفين " ، ذلك الذي صرح برضاه عن زوال كابوس. ومثل هؤلاء يزنون وزناً خفيفاً في ميزان المقاييس البريطانية. إن " غريب بروري "[1] هو شعار الإمبريالية.

لقد جرني قلمي معه أسرع مما كنت أنوي، وعلي العودة إلى بغداد وإلى الاستعداد لرحلتي. وبينما كانت أمور أكثر أهمية تجري مجراها في السراي التي كنت قد أخليتها، قنعت بالقيام بجولة وداع لأولئك النفر من أصحابي الذين حسبت أنهم لن يحرجوا بنواياي. فمن بعض هؤلاء، وفي المقام الأول من الشيخ المسن عبد القادر باشا الخضيري، جمعت عدداً من خطابات التعريف لأصدقائهم في مختلف المدن التي سأمر بها. وكان السفيان[2] قد انسحبوا إلى فارس، ابتعاداً عن التمرد، وسأراهم بعد حين في سلطان آباد - كانت البنت الصغرى قد تزوجت من ضابط بريطاني، وأعتقد أنها في لندن.

---

(١) ترجمتها " حماية الفقراء " . (المؤلف).

(٢) عائلة أرمينية من بغداد. (المؤلف).

فاستأجرت سيارة لتأخذني إلى كرمنشاه. ومن هناك، فإن أية مرحلة ستعالج منفردة. وفي أوائل يوليو ١٩٢١م، كان كل شيء قد أعد، وبعد أن ودعت زوجتي وابنتي، انطلقت إلى المنفى.

لقد كان رائعاً أن يكون المرء حرّاً، وإن كان الشعور قد خفف منه التفكير في أن البناء الذي كنت قد ساعدت في تصميمه وبنائه قد انهار نتيجة لتخريب مهندسيه الرئيسين له. ويمكنني نفض غبار العراق عن قدمي بضمير مرتاح. ولم يمض وقت طويل قبل بلوغي قصر شيرين والحدود الفارسية، حيث كانت صفوف طويلة من حيوانات النقل، والبشر وعربات النقل التي تجرها الحيوانات تنتظر الانتهاء من الإجراءات المملة التي ستسمح لهم في نهاية الأمر بالتوجه للوجهة المقصودة. وكانت السيارة تعامل بشيء من الاحترام أكثر قليلاً مما تلقاه وسائل النقل الأخرى. لذا فقد تجاوزنا نقطة الجوازات والجمارك بعد وقت لايزيد كثيراً على الساعة. وبدأنا مباشرة في الصعود الطويل والممل فوق الطريق المسلح الذي كان قد بناه المهندسون الحربيون البريطانيون في الجوانب الرسوبية للوادي العظيم الذي يخرج في قصر شيرين من الحواجز الجبلية في فارس، ويستمر إلى سهول العراق. فصعدنا وصعدنا بينما الشمس تؤذن بالغروب. وقضيت ليلتي الأولى في قرية صغيرة في المنطقة المجاورة لكرند. وفي اليوم التالي وصلنا كرمنشاه، المدينة الكبيرة الأولى على الطريق السريع، حيث أمضيت أسبوعاً أو عشرة أيام في استمتاع لطيف.

وكنت قبل مغادرتي بغداد قد قررت مبدئيّاً، تهيئة نفسي لكرم الفرس أصدقاء أصدقائي في العراق. وحسن الضيافة البريطانية، وخصوصاً الأماكن التي لاتتوافر فيها فنادق على أي حال، وينبغي التنويه بذلك عابراً، يجعل

البيوت مفتوحة للكل بسخاء في هذه الأماكن كما في غيرها من البلدان في الشرق. ولكني لم أشأ استغلالها لأني عرفت تكاليفها. كما أني أيضاً فضلت أن استقل استقلالاً كاملاً وأن أرى شيئاً من الحياة الفارسية في عطلتي. لذلك فإني مطمئن بأن مختلف القناصل البريطانيين والممثلين للبنك الإمبراطوري الفارسي، الذين يقع على عواتقهم العبء الرئيس من استضافة الموظفين العابرين أو المسافرين من الأصول الأوربية، لن يسوءهم عدم استفادتي من سماحتهم في مختلف الأماكن التي مررت بها. ولقد التقيت بعدد منهم، بطبيعة الحال، وعرفت منهم الكثير عن السياسة والأحوال المحلية. وبصفة عامة، فقد كانت وجهات نظرهم منتقدة لترك البريطانيين فارس لتتولى أمر نفسها بنفسها بلا تدخل، وإن كانوا ربما يعيشون بحرية في ذلك الجو غير الحربي آنذاك. لم يكونوا متفائلين حول مستقبل البلاد، ولكنهم آنذاك كانوا لا يكادون يعلمون شيئاً عما كان قد بدأ يحدث في طهران البعيدة أو عن الرفاهية، أو ربما كانوا فقط يرونه رؤيا قاتمة كما لو كان في مرآة - تلك السحابة الصغيرة التي لاتتجاوز قبضة اليد، التي ستغرق الأرض بمطر الاستقلال بعد ذلك. لقد كانت لحظة مواتية فعلاً لزيارة البلاد. فباستثناء ركن صغير منها في عربستان، تحت الإدارة السياسية العسكرية البريطانية، لم أكن قد زرت شيئاً من فارس، وبعد هذه الزيارة لم يقدر لي أن أراها مرة أخرى. لذلك، فإني رأيتها في مرحلة انتقال، من ماضٍ مجهول لي إلى مستقبل، ما كان أحد ممن عرفوها في الماضي يجرؤ على التنبوء به آنذاك. فمما رأيت كان هناك القليل مما يوحي للمرء بالتفاؤل. ولكن، وعلى أي حال، لايستطيع المرء أن يرى شيئاً كثيراً في رحلة استمتاع.

لقد كان مضيفيّ في كرمنشاه أخوان، محمد إسماعيل ومحمد تقي، من عائلة نظام. ولم يعرف كرمهما وعطفهما حدّاً. فحق لي أن أكون شاكراً لهما لاستضافتهما شخصاً أجنبيّاً تماماً عنهما بناءً على توصية من أصدقاء نائين، ومعاملته كواحد منهم في حياتهم اليومية، العادية البسيطة. لقد كانا تاجرين بحجم كبير نوعاً ما. ولقد تجولت في المدينة وما جاورها، برفقة أحدهما، أو بمفردي، بما شفى غليلي ؛ وفي المساء كنت أجلس معهما، نشرب الشاي أو نأكل الخيار ونحن نناقش شؤون دنياهما ودنياي. وفي مناسبات عدة زرت حاكمهما المحلي، ثقة الملك، الذي كان راغباً جداً في سماع آخر أخبار تطورات الأحداث في العراق، التي كان يدور عنها في المرتفعات الفارسية روايات غامضة وغير مؤكدة. ومن بين من قابلت أيضاً كان أخوان من أسرة يهودية (ششوة) - تاجران أيضاً كمضيفي - وناجحان بالقدر الكافي، وإن كانا فيما يبدو أكثر قلقاً من العناصر المسلمة لغياب الجيش البريطاني الذي كان مطمئناً لهما، وواعداً لهما بمستقبل أكثر إشراقاً مما يقدرون على التطلع إليه الآن بأي اطمئنان.

وهكذا مضى وقتي بمتعة رائعة. وكان ذلك في الثالث والعشرين من يوليو حين قررت أن أشرع في المرحلة الثانية من رحلتي، بعد شعوري بأنني قد عرفت الكثير عن كرمنشاه، وبدون إغراء بأن أكتب كتاباً عنها. وكان السائق الأرمني نفسه، والسيارة نفسها، اللذان كانا قد جاءا بي إلى هنا، جاهزين لنقلي إلى هناك. ولم يطل الزمن قبل توديعي مضيفي الوداع النهائي، وركبت السيارة، بمتاعي البسيط. وسار كل شيء على ما يرام حتى وصلنا سري بل، نقطة دفع رسوم العبور على نهر قره سو، حيث طلبوا منا دفع الرسوم المقررة.

لقد كان الطلب نظامياً. ولكن مثل هذه الأشياء لاتؤخذ كأمر مفروغ منه في فارس، ولقد كانت فرصة طيبة على الأقل لدرس مجاني في اللغة الفارسية. فرفضت الطلب موضحاً أنه ما دام الطريق قد بناه المال والعمالة البريطانيان، فإنه لمن غير الكريم من الحكومة الفارسية الإصرار على دفع الموظفين البريطانيين، المسافرين في سياحة، لرسوم الطريق. ثم حاججته بقولي إنه سيكون عملاً رائعاً أن يعفى كل المسافرين البريطانيين، وفي كل الأوقات، من مثل هذه الرسوم، تقديراً للهدية، التي أسهموا فيها كدافعي ضرائب بريطانيين. وبدا كأن رده على ذلك كان أن قوانين الماذيين والفرس أقدم من أن تضع في حسابها مثل هذه الاعتبارات الحديثة. فدفعت له مبلغ ١٠٣ كرانات[١]، خمس وعشرون منها غطت تكاليفي وتكاليف خادمي واسمه إسماعيل، بينما الباقي وقدره ثمان وسبعون كانت أجرة السيارة ومحتوياتها وكذلك أجرة قائد السيارة. وتسلمت وصلاً بالمبلغ، كان الشيء الوحيد المفهوم على الورقة رقم ١٠٣ - والبقية كانت بالروسية !.

لقد افترضت أن ذلك كان فعلاً وصلاً بمبلغ يبرر مرورنا بالبوابة. ولكن قبل أن يحدث هذا، ظهرت الحكومة الفارسية في زي آخر - شرطياً - يعترض حقنا في المرور. لقد كان رجلاً حنكته التجربة، مسناً، جافاً في أسلوبه، صريحاً في كلامه، يبدو عليه تصميمه الشديد على تأديته واجبه مهما يكن من أمر. فقال، أنه لا أحد مسموح له بتجاوز تلك البقعة بالتحديد من غير تصريح من الشرطة. لذا، فعلي ألا أفعل ذلك، وأن أرجع إلى كرمنشاه لإحضار تصريح أو البقاء حيثما كنت - أيهما اخترت. فحاولنا إقناعه، بلا جدوى؛

(١) الكران يساوي ٤ بنسات (المؤلف). بالجنيه الإسترليني آنذاك ٢٤٠ (بنسًا). (المترجم).

ولجأنا لكرامة بريطانيا العظمى، بلا جدوى ؛ وبناءً على زياراتي لثقة المُلك Sigat ul Mulk، أسررت له بأني صديق حميم للحاكم. ولكن الرجل ظل في عناده. فجربت لغتي الفارسية مع بعض الإساءة للحكومة الفارسية وأساليبها في المضايقة. فلم يؤثر فيه ذلك بشيء، لكن حارس البوابة بدأ يضعف. لقد كانت أوامره أن يرفع حاجز البوابة عند دفع الرسوم المقررة. وقال إنه سيفعل ذلك، ففعل. فدخلنا لنجد قبضة القانون تسد طريقنا في الجانب الآخر. ثم تجادلنا مرة ثانية، بأصوات تعلو وتعلو، وكله بلا جدوى. قلت له: حسناً، سأعود ولكن عليك إعادة رسوم العبور لأنك ترفض السماح لنا بالمرور. لكن حارس البوابة كانت لديه أوامر صريحة بألا يفرط في أي مبلغ يستلمه أثناء قيامه بواجبه. فقد رفع الحاجز. وفيما يتعلق باختصاصه فإنه بإمكاني العبور. فأفعال الشرطة ليست من شؤونه. كانت تلك هي العقبة الأخيرة. فنزلت إلى مستوى الإساءة البذيئة، والتهديدات الشديدة بأني سأبلغ الأمر لصديقي الحاكم ليصب جام غضبه على رأسيهما معاً. وبذلك أمرت السائق أن يدور لنرجع. وبصرير الترس وهدير الماكينة رجعنا للخلف لندور. فتقدم نحونا الشرطي، منتشياً بانتصاره. وكنت على وشك أن أصب مزيداً من اللعنات على رأسه حين قال: " لا بأس يمكنك المرور الآن ". وفي مرورنا ابتسمت ابتسامة عذبة لجندي آخر كان يتابع الأحداث، لعله يتساءل متى سينادى ليعتقلني، فغمز لي بعينه. لقد كان صعباً نوعاً ما فهم الواقعة. لقد فسر لي السائق الأمر بأن الشرطي لعله كان مأموراً باعتراض مجرم ما يعتقد أنه سيمر بذلك الطريق، وأنه أوشك أن يرتكب جريمة بخطأ في التعرف.

إن أسوأ ما في مثل هذه الأخطاء أنه يستغرق قدراً كبيراً من الوقت. ربما كان

الرجل يرمي إلى عطية - وإن كان أسلوبه مخادعاً نوعاً ما. لقد خطر لي إن كان موظف بريطاني يعامل بهذه القسوة - لم يزل بكرمنشاه بقية باقية من التقدير للهيبة البريطانية - فإن ذلك طالع شؤم للسكان، فرساً كانوا أم يهوداً، وبخاصة الأخيرين، للاعتقاد بأن كل اليهود أثرياء جداً. فانطلقنا الآن، وعلى جانبي الطريق صفان من التلال الجرداء الكئيبة التي أحرقتها أشعة الشمس - سيراً بلا نهاية، مخترقين قرى وحقولاً مزروعة أو مارين بها، حتى وصلنا القرى التي يسقيها سيل قام آسياب، أحد روافد قره سو. وخلفها جئنا قرية وخان البستان الكبير حيث يوجد فندق صغير أيضاً لإقامة السياح الذين يأتون لزيارة النقش المشهور للملك العظيم داريوس، المكتوب بثلاث لغات. إنه لأثر مثير للإعجاب حقّاً، يبلغه المرء بصعود شاق لجانب التل، الذي انتشرت فيه الجلاميد، حتى يصل الصفحة الناعمة للصخر حيث نحت النقش. وهناك كان، راسخاً على مر الدهور، ينادي بعظمة الملك، وإن كان الزمن والجو، لا يزالان يمحوان ببطء وثقة، ما كان مقدراً له أن يكون سجلاً خالداً. ولاشك أنه، وإلى حد ما، سيظل مقروءاً لقرون أخرى قادمة. ولحسن الحظ، وللجهود المخلصة لرولنسون، فإن نصه سيخلد طيلة الزمن في مطبوعات أسرع فناء من الحجارة، ولكنها أسهل في التخليد بالنسخ المتكرر جيلاً بعد جيل، إلى أن تجرف الحضارة نفسها، التي تفتخر بمثل هذه الجهود، إلى طي النسيان طامة ما. ويبدو أن سيل قام آسياب يأتي من جوف تلك الجبال نفسها التي تحتفظ بهذا السجل من الماضي. وتبدو جنباتها الرسوبية مستحيلة التسلق، لكن قرية البستان أنجبت جنساً من المرشدين، يمتعون الزوار بعروض مدهشة، بتسلق لصفحة الصخر التي تبدو عمودية. لقد تعلمت أصابع أيديهم وأرجلهم كيفية الاستفادة من نتوءات وفجوات في وجه الصخر لا تكاد تراها العين.

ويتجاوز الطريق النقوش ليدخل وادياً على جانبيه تلال وجبال حتى يصل صحنه، وهي منطقة مأهولة مزدهرة بها حدائق وبساتين واسعة. لقد علمت أن هناك نقوشاً أخرى في هذه الأرجاء، ولكن استفساراتي من الزراع لم تهدني إليها، وقطعنا رحلتنا لفترة نصف ساعة للتجول بين البساتين. ورافقني في تجوالي شيخ عجوز وولداه الصغيران، واشتريت تفاحاً وبرقوقاً من أشجارهم، وبعض العنب أيضاً، خالياً من البذور على مستوى عالٍ من الجودة. وقال الشيخ: " هل صحيح أن القوات البريطانية عائدة إلى فارس ؟ فقد قيل لي إنهم قد وصلوا الحدود فعلاً " . فأكدت له أن لا صحة لمثل هذه الشائعات. فعبر عن حسرته لذلك، وقال: " إن الإنجليز أناس طيبون، كانوا يشترون مني الفاكهة بكميات كبيرة " .

لقد فشلت الجهود الجبارة لوصول كنقاور قبل غروب الشمس. وكان الوقت وقت الغسق حين وصلنا السلسلة الحتمية لحاجز دفع الرسوم وشاهدنا الأطلال الحجرية الضخمة لمعبدها القديم. لقد أكد لي القنصل البريطاني في كرمنشاه أنه لاينبغي علي الشعور بوخز الضمير في الاستفادة من كرم الحاكم المحلي. وبالرغم من ذلك، فإنني أمرت السائق بشيء من الرهبة ليلف ويدخل البوابة الفخمة لضيعته الرائعة. فكان ذلك كهبوط غير معلن على مالك تشاتسورث أو أي مقر لدوق من الدوقات في إنجلترا. ولكن وجه الشبه ينتهي هنا. ففي مدخل الصالة أحيطت سيارتي المستأجرة سيئة السمعة بخدم اهتموا بها، وعاملوها بالاهتمام الذي تستحقه سيارة رولز رويس جاءت من المحطة بضيف مكرم طال انتظاره. ومن بين الخدم ظهر أغا عبد الله خان، الأخ الأصغر للحاكم، الذي رحب بي بحفاوة بالغة، وبسرعة رفع عن نفسي

الحرج. وبعد ذلك، وبلا مزيد من الشكليات، قادني وسط الحديقة إلى بيت صيفي بديع غير مسقوف في الطرف النائي من طريق قصير على جانبيه الصفصاف والحور. وهناك وجدت الحاكم نفسه، أغا فرج الله خان، وتم تقديمي له. وبعد لحظات قصيرة من جسارتي باقتحام قائمي البوابة العظيمين وجدت نفسي في علاقة حميمة مع سليلي النبلاء الفرس هذين، اللذين لم أرهما من قبل - وإن بدا لي كأني عرفتهما منذ بدء الخليقة. إن ظروف الحياة الأوربية قد جعلت نظام الحصص التموينية شيئاً حتمياً بدلاً من فضيلة الكرم، ولم يعد المسافر العابر يجد الباب المفتوح أكثر مما تجده التجارة بين الأمم. لكن الجو الألطف في الشرق كان أكثر ملاءمة لنبات محلي لم تكن به حاجة لأن ينافس محصولات أخرى، أفيد منه، في رعاية الراعي له. فهو هنا، وبكل تأكيد، ينمو سنوياً بغزارة مدارية - وما من مكان ينمو فيه بأغزر مما ينمو في فارس، حيث الطبيعة أكثر ملاءمة مما في الجزيرة العربية، بمياهها الوفيرة وحدائقها المزدهرة.

لقد كان بين الأخوين اختلافات واضحة تماماً. فالأخ الأصغر أقصر وأمتن بنية كمن كرس حياته للرياضات الرجولية - الحرب والصيد، أما الحاكم نفسه، وإن كان مثله شغوفاً بالاتجاهات نفسها، فإنه كان أطول وأدق عوداً، وأهدأ في مظهره مع شيء من التشويه لمرض في العين يعاني منه لسنوات طويلة. إن اعتذاري الطويل باقتحام خلوتهما، متطفلاً وبلا إنذار، صرفاه بتأكيداتهما أني ما كنت سأسعدهما أكثر مما فعلت بجلب ذلك التنويع في حياة عزلتهما. وبعد أن انضم إلينا شاب متعلم من همذان، ظللنا نناقش شؤون العالم ونحن نتناول المرطبات والشاي والمشمش والخيار - حتى أعلن عن العشاء. وكان بسيطاً،

ولكنه كان طعاماً مكوناً من الأرز، واللحم، والخضر والفاكهة على الطريقة الفارسية.

واستجابة لطلبي أذن لي بالنوم في البيت الصيفي. وقبل الافتراق لليلة أصر مضيفاي على قضائي اليوم التالي ضيفاً عندهما ووعدا بترتيب رحلة صيد لأرى شيئاً من الريف. وفي الصباح التالي أعطيت زوجاً من القيفا (أحذية أسفلها من الحبل)، وبندقية، وحزاماً عريضاً للرصاص، ورصاصاً، وحصاناً رمادياً جميلاً، مما ربي في الريف، بسرج لسلاح الفرسان البريطاني. وكانت مجموعتنا مكونة من نحو عشرين شخصاً، من بينهم طفلان للحاكم - صبي في الخامسة وصبية في السادسة، ركبا حمارين، يرافقهما الخدم على الأقدام ليحولوا دون سقوطهما. وبعد أن اخترق الموكب أزقة المدينة الضيقة المتعرجة، سائرين في صف، لفوا صاعدين في وادٍ لغدير له خرير حتى قرية قره قوزلو. ثم تفرقنا فوق التلال بحثاً عن الصيد. ولكننا اكتشفنا أن مدير البريد وصديقاً له، اللذين لم يعلما بنية الحاكم صيد هذه الحيوانات المتخفية، كانا قد سبقانا ونجحا في إنذار كل الحيوانات لأميال حولنا. وأثناء ذلك كانا قد اصطادا شاكوراً وسسيّاً، أضفنا إليهما ثلاثة أرانب، تمثل كل حصيلتنا طوال اليوم. وهذه كلها صادها عم للحاكم، كان قد ركب ولحق بنا عندما سمع برحلتنا. ولأننا كنا جميعاً قد خرجنا خاليي الوفاض على سفوح التلال، فإننا قررنا العودة إلى القره قوزلو العليا، وهي منطقة مأهولة ساحرة في أعلى الوادي نفسه وسط كثير من الحور والصفصاف والأشجار الأخرى والأعشاب. وكان الخدم قد سبقونا إلى هنالك بكل الأغراض الضرورية لإعداد مأدبة. وهناك استقرينا لقضاء معظم اليوم، متكئين على سجاد مفروش على بقعة منظفة

حسنة الظل وسط الحور والصفصاف على ضفة نهير جار عرضه نحو عشرين قدماً. لقد كان مكاناً نموذجيّاً لرحلة، كما يتصوره المرء. وتسلينا بالرمي في أهداف نصبت على الضفة المقابلة، كما رمى البعض ليصيب الأسماك في النهير، بلا نجاح يذكر، ذلك لأن أكياسهم اقتصرت على سمكتين أو ثلاث، صغيرات، أعطيت للطفلين ليتسليا بها. لقد صعقت صدمات الرصاص الأسماك فوراً، لذلك جمعها الخدم وهي طافية على السطح. وكان الطفلان مشاكسين ويتعاركان، ولم يؤنبهما الكبار، الذين تجاهلا توجيهاتهم، لا أوامرهم، بلا عقاب. وفي مرة من المرات تعاركا حول حافظة (ترمس)، فازت بها البنت ولكن بلطمة على الوجه من أخيها الأصغر، الذي سرعان ما غرق في بحر من الدموع - لا أسفاً للطمه بنتاً، وإنما غضباً لخسارته لب المعركة. فتمت تهدئته فوراً حتى جفت دموعه، واستعطفت البنت حتى تنازلت عن الحافظة (الترمس).

وأثناء ذلك تناولنا المشمش، والعنب والخيار حتى قنعنا، والشاي من السماورات[1] الصفراء، حتى حان وقت غداء شهي من لحم الغنم، والدجاج والأرز، ومختلف أنواع الخضر، والمرق لذيذ الطعم، والدّوغ (اللبن) المثلج لغسل كل ذلك. والثلج يخزن في حفر خاصة في فصل الشتاء، وبكميات كبيرة تكفي لأن يستمر خلال كل فصل الصيف. وبعد الغداء جاء كل من عبدالله وعمه، الحاج علي محمد، بمرجام، وبدآ يتباريان في إصابة تفاحات نصبت على أفرع قريبة، وكانت رهاناتهما من الرصاص. ففي مرة من المرات، مثلاً، أصاب العم تفاحته إصابة مباشرة ولكنه لم يزحزحها عن

(١) كلمة سماور، التي استخدمها فيلبي هنا روسية معناها «غلاية» ماء. (المترجم).

موضعها، فطعن ابن أخيه في ادعائه. ولكني لم أتردد في القضاء للعم لإصابة واضحة كتلك. لكن محاولاتي الرمي بالمرجام لم تلق شيئاً سوى الفشل. إن علي محمد، وإن كان عم الآخرين، كان رجلاً لم يتجاوز الخامسة والأربعين، ورياضيّاً متميزاً. ولقد كانت إحدى حركاته مدهشة حقّاً. فبعد أن نصب تفاحة على مسافة أطلق عليها بضع رصاصات، وبندقيته مقلوبة. وقد استند عقبها على جبهته من غير وقاية لها. ولعله اعتمد اعتماداً تامّاً على قوة ذراعيه في امتصاص صدمة كانت ستكون رهيبة لولاهما.

لقد استمر عرض المهارات في التصويب طيلة رحلة العودة، ونحن نتبع آثار الماعز على السفوح الصعبة من التلال. وكان المتنافسون، تخب بهم الأفراس، يطلقون الرصاص من هذا الكتف أو ذاك عفويّاً على صخور في الطريق بنتائج مذهلة وإن ندر إصابتهم الأهداف فعلاً. ولابد أن هذا كان هو أسلوبهم في المعارك، وكانت خيولهم مدربة لهذا الغرض تدريباً يعجب المرء. وكان معظمها من سلالات فارسية - عربية، كما كان من بينها ما هو عربي أصيل. ولم أر أيّاً منها يجفل من طلقة. لكن الأمر اختلف مع الكلبين اللذين كانا معنا. فمع كل طلقة كانا يعدوان في كل مكان، ينبحان بشدة، مما يعني أنهما لم يدربا على العدو خلف الركب. وكان الوقت بعد الغروب بقليل حين وصلنا كنقاور. ولما كنت في أول الركب، جذبت لجام فرسي ليتولى الحاكم قيادة الركب مخترقاً المدينة. لكنه أصر على تقدمي الركب، واضطررت للرضوخ له في تلك المنافسة في الأدب. وختم العشاء والسرير يوماً لا ينسى. إني أستعيد ذكرى تلك التجربة للحياة العائلية اليومية للنبلاء الفرس كإحدى السمات المدهشة لعطلة فارسية ممتعة.

إن حكم كنقاور، ولكل الأسباب العملية لا النظرية، كان وراثة في أسرة مضيفي، التي شغلت المنصب لمئة وخمسين سنة، بانقطاعات يسيرة من حين لآخر، وكما أخبراني، هي ست سنوات فقط في مجموعها. وكان المنصب يعد تابعاً لحاكم كرمنشاه فقط حين يكون الحاكم فيها أميراً. عدا ذلك، وكما هو الحال الآن، فإن الحاكم يتعامل مع الحكومة المركزية في طهران مباشرة. وينحدر مضيفاي في الأصل من قبيلة أفشار الأفغانية. وكان رأس العائلة - آنذاك أغا أمان الله، والد مضيفي، الذي ترك هموم الإدارة الإقليمية لابنه الأكبر وأصبح يعيش عيشة ملاك الأراضي الريفية - يحمل اللقب الوراثي الفريد ساري أرسلان (الأسد الأصفر). وكان الشيخ الكبير قد تلقى قبل شهور قليلة صدمة مؤلمة لانتحار أصغر أبنائه، الذي نقل جثمانه، بعد وساطة من السلطات السياسية والإدارية البريطانية، إلى النجف لدفنه من دون الإجراءات الصحية، التي تقضي بتأخير الجثمان لفترة كافية من الزمن حتى يتحلل تحللاً تاماً قبل نقله إلى بلاد الرافدين.

وبالرغم من استمتاع هذه العائلة بالمتع الرجولية الدنيوية، فإنها تفتخر بولائها الراسخ للمذهب الشيعي ومبادئه. فمثلها مثل سائر الأسر الشيعية الكبرى، لها مدفن عائلي موروث في وادي النجف من وادي السلام. وقريباً جداً، حصلت على مقبرة في جوار مشهد الإمام علي، دفن فيها المنتحر الشاب، وبذلك، ولسعادة والديه، يرقد في أقدس الأماكن عند المذهب الشيعي. وبحصول الشيخ العجوز على هذا المكان المتميز فإنه مدين بالفضل لعالم شبه عربي اسمه محمد سعيد، له بعض النفوذ لدى السلطات في النجف، وكان آنذاك مقيماً في كنقاور معلماً لأولاد الحاكم. لقد حدثني كثيراً

عن الخدمات القيمة التي كان قد قدمها، كجاسوس، لليشمان، وضباط آخرين في إدارة بلاد الرافدين. ففي إحدى المناسبات أسرّ إليّ قائلاً إنه تلقى هبة من خمسة ريالات لخدمات - لعلها كانت إيماءة، تجاهلتها، بأن كل الإسهامات ستتقبل قبولاً حسناً.

وقبل مغادرتي كنقاور زرت معبد النار العظيم (آتشقد) السابق ذكره. ولكي أصل إليه كان علي اختراق السوق، الذي كان مسقوفاً بأغصان الأشجار لمنع الشمس، ويتنافس فيه اليهود والتجار المحليون في تجارة هزيلة من منتجات الهند ومانشستر، استوردت عن طريق بغداد وكرمنشاه. إن ثلاثة من أعمدة المعبد، وجزءاً من سوره الخارجي المبني من حجارة ضخمة لا تزال في مواضعها، قد أصبحت جزءاً من مبنى ضخم من اللبن في آخر السوق. إن قدراً كبيراً مما تبقى من السور لايزال يرى، وإن لحق به ضرر كبير من نهب البناة المتأخرين له. وبالإضافة إلى هذه الآثار القائمة، هناك أعمدة ساقطة وتيجان أعمدة يراها المرء. ومن الأخيرة هذه، تم تجويف أحدها ليصبح هاوناً لطحن الحبوب. ولا بد أن المعبد كان بناءً ذا أهمية كبرى في الأيام الخوالي. فلا يعرف شيء عن أصله، إلا أن الروايات المحلية تنسبه إلى أب شكور. وسواء أكان هو نمرود أم كخسرو، أم شخصاً آخر، فإن ذلك لايهم في شيء. وكائناً من كان، فإنه كانت له ابنة مصابة بعادة لا علاج لها، هي نومها مفتوحة الفم. وبناءً على نصيحة الأطباء أو العرافين سافر البطل بابنته بحثاً عن العلاج. فأيما مكان تعود فيه البنت إلى النوم العادي سيتخذه مقراً دائماً، مفسراً العلاج بأنه علامة واضحة للقدر الإلهي، ومخلداً المعجزة ببناء معبد. وهكذا، جاء في أسفاره إلى كنقاور، ورقدت البنت لتنام أمام عيني والدها اللتين كانتا تراقبانها دائماً.

وفجأة وقعت في فمها الفاغر ذبابة من ذباب كنقاور، فحدثت المعجزة. فقد أطبقت شفتاها بصوت عال على المتطفلة، ونامت قريرة العين لما بعد ذلك من الزمان، كما يدلل عليه بناء المعبد بالدليل القاطع. وتصور المرض رواية أخرى أكثر وقاراً بأنه داء بالعينين، شفاه مناخ كنقاور اللطيف. وفي كلتا الحالتين فإن المعبد بني شكراً لمعجزة.

وهكذا انتهت زيارة لطيفة. وودعني مضيفاي عند بوابة الحديقة، بعد أن ألزماني بوعد بزيارتهما في طريق عودتي - وهو وعد لم أنجزه لعذر نسيته - وانطلقنا في الطريق إلى همذان. وكان القسم الأول من طريقنا يخترق الوادي الخصيب الواسع لكنقاور، الذي تتفرق فيه قرى كثيفة حتى سفوح جبل ألوند. وبعد وقفة قصيرة لكأس من الشاي في حسن آباد، جئنا إلى أسعد آباد، حيث يبدأ الطريق في التعرج في صعود حاد على صفحة الجبل. وكانت السيارة تتوقف بين الحين والآخر لتلتقط أنفاسها - ذلك الصعود هو كل ما في وسعها وهي في تنفسها العالي. ولكننا في نهاية الأمر، بلغنا قمة الممر (٧٣٠٠ قدم فوق سطح البحر)، ونظرنا أسفلنا إلى سهل اكباتان القديمة (همذان الحالية). فمن ناحية يدنا اليمنى وقف ألوند بوقار فوق العالم، بضعة آلاف من الأقدام فوقنا. وخلفنا وأسفلنا كانت أسعد آباد بكومتها العالية - لاشك أنها مدفن قرية ما قديمة. ثم واصلنا رحلتنا، نجري بيسر هابطين الطريق المتعرج المؤدي إلى المدينة.

في همذان مستعمرة يهودية كبيرة. ومضيفي، الذي جئته بخطابات تعريف من بغداد، كان داود عبودي حزقيال حاييم، ومن ذلك الجنس - رجل لطيف كريم، أسهم هو وخدمه وأقرباؤه إسهاماً كبيراً في متعة إقامتي هنا. وكانت إقامتي، في جملتها، في همذان أسبوعين أو أكثر قليلاً. ولأن مضيفي كان

تاجراً، فإنه غالباً ما يكون مشغولاً بشؤون تجارته المزدهرة خلال النهار. فكنت حراً للتجول كما شئت، أحياناً بمفردي، وأحياناً أخرى بمصاحبة قريب أو خادم من خدم الدار. وفي المساء كنا نجتمع في الفناء البديع لدار داود، مع أصدقائه من اليهود أو المسلمين، ونتسامر في شؤون العالم مع بعض المنعشات - أجود العنب مع الخيار بالملح - والشاي حتى موعد العشاء. ويبدو أن المدينة بعد ذلك بقليل تخلد إلى النوم كمقابل للاستيقاظ المبكر في صباح اليوم التالي. ولكن، لعل أبهج ما كان في تلك الأيام كان ذلك الصباح الباكر حين نتجمع في الفناء لشرب الشاي ولإفطار بسيط، ونناقش برنامج اليوم أو مواضيع أخرى ذات اهتمام محلي. وبعد ذلك أنطلق في جولة زيارات في المدينة أو لرحلة في المنطقة المجاورة. ويبدو أن المجموعة اليهودية، ومضيفي بصفة خاصة، كانت على علاقة طيبة مع جيرانها المسلمين ؛ ولقد قابلت كل التجار والموظفين الكبار.

ولعل أجدر العناصر بالاهتمام مجموعة صغيرة من البهائيين، تابعي عقيدة انتقائية وعالمية كان لها انتشار كبير في فارس خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ولكنها مؤخراً لم تعد جذابة كما كانت، وأجبرتها الظروف على العمل سرياً. إن يزد وكرمان، لاتزالان، في ظني، أهم قاعدتين لهذه الديانة في فارس اليوم. وفي قزوين قدِّر لي أن أجد جماعة منظمة جداً من البهائيين، بفضل خطابات التعريف إلى قادتها من أصدقائي الهمذانيين. وسيكون لدي المزيد لأقوله عن هذا المذهب فيما يتعلق بزيارتي إلى ذلك المكان. وفي الوقت نفسه يبدو أن يهود همذان كانوا على علاقة طيبة مع الفرع المحلي للبهائيين، الذين كان بعضهم في اعتقادي أعضاء فعلاً، وإن كان البرود الشيعي والرسمي نحو هذا المذهب يناهض كل إعلان عن عضويته ونشاطاته.

فكانوا كجماعة من الأصدقاء تؤدي أعمالها التجارية والاجتماعية بهدوء اعتقاداً راسخاً منها أن الله سيقضي يوماً ما بتوحيد كل الطوائف والعقائد المتنافرة، التي تدعي رضاه الخاص.

منذ انسحاب القوات البريطانية، التي كانت بطبيعة الحال قد وجدت في همذان مركزاً مهمّاً ومناسباً للاتصال بمعظم قزوين، فإن المجموعات الأوربية انكمشت عائدة لأحجامها الأصلية غير الكبيرة. ولكن كانت هناك جماعة أوربية، محورها القنصلية البريطانية، وكذلك فرع للبنك الإمبراطوري، إلى جانب مجموعة أمريكية مسئولة عن تطوير صناعة السجاد والأبسطة وتحديثها. لقد كانوا يبذلون جهداً محسوساً ليحولوا دون انحطاط صناعة السجاد وابتذالها في البلاد في الظروف الراهنة. وتقدم مصانعهم المنتشرة في مختلف أنحاء فارس فرصاً طيبة للعمل والمعيشة للفتيات والنساء، اللائي كن في أيام ما قبل الطوفان، قبل أقل من عشرين سنة، يمارسن مهمتهن بشروط حجاب صارم. لذا فإن زيارة المصنع كانت مكرمة نادرة. وما رأيته من عمل وظروف أكد لي أن السيد إدواردز ومساعديه كانوا يقومون بعمل بارز ومهم، بكل حماس المبشرين. أما ما حدث لهذه المنظمة منذ تلك الأيام، فلا أعلمه، ولكن لا أعتقد أن أحداً ما سيدحض القول إن فارس لم تعد تحتل الصدارة، التي كانت تحتلها من قبل، من بين صانعي السجاد في العالم.

إن أهم أثر في همذان، التي لا تعد مدينة بعمارة ذات صفة بارزة، هو القبر الأصلي لإستر وموردیكاي في الميدان الرئيس. ولاشك أن كثيرين قد وصفوه، لذا فإني لن أحاول مناقشة تفاصيله، أكثر من وصفي له بأنه كبناء، كان أكثر جاذبية من كونه عظيماً. ومثله مثل سائر كل الأشياء في المدينة يطغى

عليه أثر آخر لم تشيده يد الإنسان - هو مخروط ألوند العتيد، الذي ترتفع قمته لألف ومئة قدم فوق سطح البحر. وإن لم أكن متسلق جبال في أي معنى من معاني الكلمة، فإني لا أطيق رؤية مكان عال فوق سطح الأرض بلا رغبة عارمة في رؤية سطح الأرض من ذروته. لقد أثّر ألوند عليّ بالطريقة نفسها، ولم أجد مشقة في إشباع رغبتي. وبعد حصولي على مرشد بمساعدة داود، انطلقت مشياً لأخترق الحواجز الخارجية للجبل الذي ينحدر حتى أطراف المدينة تقريباً. ولم تكن هناك صعوبة تذكر في صعود القمة نفسها، التي تعطي المرء مناظر بديعة وشاملة لكل الأراضي الجبلية المحيطة بنا.

وهنا وهناك " من كهوف التلال المتحدرة " تدفقت ينابيع متلألئة من نوافيرها العالية، لتنساب هابطة في مراعٍ خضراء غارقة في بقع الماء كالتي يجدها المرء في جبال ويلز وأسكتلندة. إن ألوند من الجرانيت، الغني بالميكا[1]، تدور ذراته الذهبية في مياه الينبوع، عاكسة أشعة الشمس. وفي بعض الفجوات، المظللة عن أشعة الشمس، لم تزل بعض بقع الثلج قابعة منذ الشتاء المنسي. فمن القمة نظرت إلى مشهد رائع لسهلي كنقاور وهمذان على الجانبين. فالأول منهما، يمتد راجعاً إلى الوراء، بين جانبيه الوعرين، في البعد، حيث ترقد كرمنشاه، غير المرئية، في الوادي على الجانب القريب من الحاجز النهائي الذي يحف سهل الفرات. وسهل همذان، الواقع في اتجاه شمالي غربي وجنوبي شرقي، يمتد من أسفل ألوند إلى الحاجز المنخفض من التلال، الذي يفصله من حوض قزوين. وإلى يسارنا جبال كردستان، المنسابة إلى مسافة بعيدة، تطبق بالسهل، بينما كانت هناك جبال أخرى إلى يميننا،

(١) الميكا: مجموعة من المعادن تمتاز بوجود انفصام شديد يسهل انفصالها إلى شرائح متناهية الرقة. وهي مادة أساسية في الصناعات الكهربية. الشنطي، الرواسب المعدنية في المملكة العربية السعودية. ط١، ١٤١٦هـ، ص٢٢٩. (المراجعون).

تحتضن مرتفعات سلطان آباد وتحجب الصحراء الفارسية عن عيوننا. وتقسم سهل همذان إلى قسمين سلسلة منخفضة في وسطه، ممتدة شرقاً وغرباً. وبهبوطنا بطريق آخر، أشد انحداراً نوعاً ما، ارتحنا لفترة في قرية ألوند في أسفل الجبل لنشرب الشاي مع رجال نقطة الشرطة المحلية الكرماء، قبل رجوعنا إلى ديارنا.

ولم أغادر همذان إلا في العاشر من أغسطس. وقبل ذلك التاريخ بيومين كنت مشغولاً بمحاولة مضنية ومسلية للحصول على وسيلة ما للمواصلات. لقد اكتسب السائق وصاحب الجراج المعاصران كل سيئات أصحاب البغال القدامى دون اكتساب لأية فضيلة من فضائلهم. لقد كان الأمر، وفي كل الأحوال، أمر مساومة شديدة حتى وصول اتفاق من أي نوع. بل وعند بلوغ تلك المرحلة لا تنتهي المتاعب، إذ في أغلب الأوقات، يندم الطرف الآخر على الشروط السهلة التي اتفق عليها بعد نصف ساعة فقط من توقيعه العقد وقبضه مبلغاً صغيراً كدفعة أولى. وقد تفضل داود مخلصاً بإراحتي من كل هذه المشكلات بقيامه بنفسه بهذه الإجراءات. ففي اليوم جاء برجل رضي أن ينقلني إلى قزوين بثمانين تومناً[1]. ولكنه فات عليه اكتشاف أن السيارة غير صالحة لأي عمل بعد ذلك. ولما اكتشف سومخ[2]، الخادم المخلص لداود، ذلك، حول مقدم الدفع إلى مثوسلاح[3]، الذي قبل القيام بالمهمة بتسعين تومناً. ولكنه حينما رآني وملامحي الطيبة، طلب دفع ثلثي المبلغ مقدماً. وكان ذلك غير معقول. ولما عبرت عن رأيي بهذا المعنى، رمى على الأرض التومانات

(١) التومان يساوي ثلاثة شلنات إنجليزية ونصف الشلن. (المؤلف). وهو يساوي خمس الجنيه الإسترليني آنذاك. (المترجم).

(٢) رسم الاسم كما ورد في الأصل الإنجليزي. (المترجم).

(٣) رسم الاسم كما ورد في الأصل الإنجليزي. (المترجم).

الخمسة التي كان قد قبضها من سومخ، وانصرف يدق الأرض برجليه غضباً. فأشرت على مضيفي بأنه، ما دام قد لقي ما لقي من المتاعب، فإني سأتولى الأمر بنفسي. وبعد وقت قصير جاء إسماعيل بسائق أرمني، مالك لسيارته، اسمه أنطنيان، مستعد لنقلي إلى طهران بمئة وخمسة وأربعين تومناً، أدفع له منها خمسة وأربعين مقدماً، والباقي في طهران، وعليه كل نفقات السيارة في الرحلة، بما في ذلك رسوم الطريق. وكان يعلم أني أنوي قضاء أيام في قزوين، فأراد أن يضمن في اتفاقنا فقرة تجبرني على دفع نفقاته خلال إقامتنا هناك. وعلى هذه النقطة وافقت فوراً، شريطة أن يدفع نفقة فندقي وأي أشياء أخرى لكل يوم نقضيه في الطريق لعطل في سيارته. وبما أن المسافة يمكن أن تقطعها أية سيارة مناسبة في يومين، وأني كنت أنوي قضاء ثلاثة أيام في قزوين، فإن العرض المقدم كان أجزى له، ولكنه لم يرض بأي شيء من ذلك، لمعرفته بسيارته بطبيعة الحال، فتراضينا بأن نسكت عن النفقات في قزوين. فأعطيته التومانات الخمسة والأربعين، وانتهى كل شيء على خير.

وفي صباح العاشر، حملت أغراضي إلى ميدان استر وموروديكاي، حيث كانت السيارة في انتظارنا. وبعد توديعي داود وسكرتيره صالح بامتنان، كنت مستعداً للسفر، ولكن أنطنيان تذكر أنه لم يسدد بعض ديونه وألا مال معه يسددها به. ولم يكن باستطاعتي منعه من خلق مزيد من التأخير بمحاولة في الدقيقة الأخيرة لتسوية الأمور مع دائنيه (الوهميين)، ولكني رفضت رفضاً باتّاً المساعدة في التسوية مادياً. فأصبح مواجهاً بالاختيار بين نقلي في رحلتي وبين رد المبلغ الذي كان قد قبضه مقدماً. ولعجزه عن الثاني لأنه كان قد صرف المال، قرر في حكمة فعل الأول. وبدأ صرير الترس وحملتنا السيارة إلى

السلاسل، حيث كان الناس، بطبيعة الحال، منتظرين لتخليصنا من نقودنا. وعلى أي حال، فقد كان هذا شأن أنطنيان، ولكنه نظر إلي. فنظرت إليه، وأدركت أنه لا مال معه. لقد كان رسم العبور عشرة تومانات. وبما أننا كنا قد بدأنا الرحلة فعلاً، فإني أدركت أنه لامجال للغش. وكبادرة كريمة، أعطيته عشرين تومانا أخرى، من باقي الأجرة. وعند ذلك دفع لصاحب الرسوم، ثم تذكر أنه لا زيت عنده. فبحث في السيارة بلا جدوى عن التنكة التي لم يضعها فيها أصلاً. وفي آخر الأمر كان علينا الرجوع - ميلاً واحداً فقط - ليتمكن من شراء تنكة بدلاً عن الأخرى "الضائعة". وبعد ذلك بدأنا الرحلة فعلاً.

لقد أمضينا خمس ساعات، نتيجة لأعطال ميكانيكية طفيفة، لقطع السهل ذي الخمسين ميلاً ونصل إلى رازان، محطة رسوم الطريق أسفل حاجز التلال الذي يشكل فاصل قزوين - همذان. وهنا قررت التوقف للغداء في حديقة ساحرة ملصقة ببيت دفع الرسوم، حيث تبعني إليها حارس المحطة، الذي لم يقبل عرضي له نصيباً من غدائي، ولكنه أصر على تزويدي بشاي يغسله. لقد كان روسياً عاش هو وزوجته - المدرسة السابقة في المدرسة الروسية بقزوين - حياة وحدة، وإن كانت غير تعيسة، في هذه البقعة المظلمة بالجهل، براتب أميري قدره أربعون تومانا في الشهر. لقد كان شخصية معروفة جداً خلال الاحتلال البريطاني، حين كان ضباط الجيش يستخدمون كوخه كاستراحة في رحلات الرماية. إلى جانب ذلك فإنه كان محباً للكلاب، ومالكاً لعدد من كلاب الصيد الروسية الراقية، رأيت أحدها، بينما كان آخر قد سرقه جندي عابر، أو كما روى بمسحة من الحزن، شخص كان قد قضى ليلته ضيفاً عليه. ولم أسعد بمقابلة زوجته. ولكنه كان بحق شخصاً جذاباً. وكانت شكواه

الأساسية صعوبة الحصول على أي شيء يستحق الشرب في هذه المناطق المتوحشة. في واقع الأمر لم أمر بتلك البقعة أبداً في رحلة عودتي، إذ إني سلكت الطريق من سلطان آباد إلى همذان. فمن ضيوفه البريطانيين كان قد التقط ثلاثة أو أربعة تعابير رسمية، ومن الفرس نحو العدد نفسه من الكلمات، ولكنه كان يتكلم بلغة روسية ممتازة - اللغة التي لا أعرف منها كلمة واحدة - وتمكنا من التحادث إلى حد ما، في بعضه بمساعدة كاتب فارسي ظهر كأنه يتكلم الروسية بمستوى طيب.

إن مثل هذه المقابلات مع الهائمين في تيار الحياة هي ملح الأسفار عينه. فقد يكون متشرداً على طريق سريع إنجليزي، لا يعرف متى تكون لقمته التالية أو أين يكون مطرحه، ولكنه وفي شجاعة يرجو أن تمد له جماعة في نزهة على حافة الطريق مفاتيح الجنة، أو أوربيّاً منبوذاً في أحراش آسيا، نسيه قومه، ولكنه غير ناسٍ، يسعى جهده، ليحيا حياة كفاف في محيط غريب، بالقدر اليسير الذي يلتقطه من شاطئ بحر خال. وهكذا حدثت نفسي، ونحن نبدأ المرحلة التالية من رحلتنا. وفي مانيان، وهي قرية صغيرة، بدأنا الصعود الفعلي إلى الممر. ومن هذه النقطة فصاعداً أصبحنا في مشكلات لا تنقطع مع السيارة. فقد قمت بكل الصعود سيراً، وقبلها بساعة ونصف الساعة وصلت القمة. لقد كان الوقت قبيل الغروب، ونحن نسير سيراً سهلاً هابطين إلى سلطان بولاق، وهي من سلسلة المحطات نحو نصف ميل أسفل القمة، ومنها إلى آوا، حيث وجدنا كميات هائلة من القمح على مجموعة من الجبال المجاورة معدة للدرس. وفي الهبوط المنحدر، حدثت لنا مغامرة أوشكت أن تنتهي بكارثة. إنني لم أكد أصدق عيني لمنظر إطار كامل لسيارة ينطلق بسرعة

جنونية منحدراً مع الطريق بجوارنا ليهوي إلى حافة الجبل عند منحنى في الطريق. لقد كان أحد إطاراتنا نحن، كان قد انخلع بكامله من إحدى العجلات الخلفية دون أن يحدث الصدمة التي ربما توقعها المرء - ولعل ذلك كان لأن مرور السيارة البطيء والعنيف على رقعة سيئة من الطريق نتج عنه خبط شديد بالقدر الذي جعل أية صدمة إضافية غير محسوسة. فنتج بعض التأخير ريثما أستعيد الإطار الفالت من الأعماق وأعيد حيثما كان في العجلة. وبدا الطريق في الظلام المتزايد أخطر مما يبرر مزيداً من التجارب. لذا قررنا المبيت في آوا، حيث هيأ لي رقيب في الشرطة المحلية غرفة نظيفة علوية في آخر بيت في القرية. أما الأشياء الأخرى - من شاي شربته، وطعام أكلته وسجادة نمت عليها - فما من مأخذ يؤخذ عليها. لقد أخذت الرحلة من همذان عشر ساعات، فكنت متعباً - لذا نمت نوماً طيباً.

وفي اليوم التالي استأنفنا السفر مبكرين هابطين طريقاً سهلاً، ولكنه كان منحدراً، متعرجاً بين الصخور المطلة على وادي كارا رود[1] الضيق الغائر جداً أسفلنا. فعلى جانبينا شمخت الكتل الجرداء من جبال الحجر الرملي في طبقات تكاد تكون عمودية، تعلوها في بعض الأجزاء بطون أفقية من تكوينات لاحقة، تقدر بألفي قدم فوق الوادي، لعلها تعود للمايوسين مثل الصخور الجيرية الحاوية لمتحجرات في سهل همذان. وبالقرب من الطريق لمحت نباتاً متحجراً منحوتاً على جلمود ضخم من الصخر أثقل من أن تحمله السيارة المعانية، وأصلب من أن يلين بسهولة لفلق القطعة التي استحوذت عليها.

(١) «النهر الأسود». (المترجم).

وفي الماء الحار، في المناطق الدنيا من الوادي توقفت لبرهة لأتأمل الحمامات والعيون الحارة التي اكتسبت منها القرية اسمها. والمياه الحارة، لا تغلي فعلاً ولكنها حارة بما فيه الكفاية للمستحم صعب الترضية، تنبع في عدة نقاط متخللة مسامات قطعة من الصخر - جيرية فيما يبدو، ولعلها من مادة بركانية أو أية مادة أخرى - نحو مئة قدم في طولها وعشرين قدم في عرضها، ومرتفعة إلى مستوى النهير. والحمَّام مكون من بركة، مساحتها سبعة أقدام مربعة، وعمقها قدمان، مسقوفة للخصوصية، ويخترقها الماء ليجري في قناة كارا رود. والماء في البركتين الأخريين ليس أكثر من دافئ. ولكن المكان كله تعبقه رائحة الكبريت التي تزيد من شدة رائحة النتانة الناتجة عن العادات الصحية السيئة لبعض زوار هذه العيون الصحية المشهورة. وتمخض عزمي على الاستحمام عن رضى باغتسال لمجرد الاغتسال. وكان داود قد أخبرني في همذان بألا أحد يظل في الماء لمدة طويلة بسلام، وأنه في مرة من المرات عانى من تهوره بحالة غيبوبة تصاحبها زرقة في لون بشرته. فذكرني ذلك بتجربة في الجزيرة العربية رواها كارلو غورماني، أحد أوائل الرحالة في شبه الجزيرة العربية، الذي استحم في بركة في صخر، أنقذه منها وهو في حالة خمول مارة من الغجر. ولقد سعيت كثيراً للعثور على تلك البركة، ولكني لم أفلح.

ومن آب قرم يتسع الوادي شيئاً فشيئاً، ثم جئنا دون أن يحس بنا أحد إلى طرف سهل قزوين، المحصور بين السلسلة التي كنا قد عبرناها لتونا وجبال البرز، الأعلى منها في جنبها الشمالي، التي أصبحت ظاهرة جداً الآن وقد احتضنت واحة قزوين في أطرافها. وتصل السلسلتين من الجبال سلسلة معترضة بمحاذاة الطرف الغربي للسهل، تقع في انتفاضة كبيرة منها مدينة زنجان

ومنطقتها. وواضح أن السهل خصب جداً، تفرقت في مساحته الشاسعة قرى كثيرة، بينما ارتفع منه، فوق منحدر على الطرف الغربي من البرز، الطريق المؤدي من قزوين إلى رشت على بحر قزوين. وفي نهاوند، القرية الكبيرة على الطريق، توقفنا لاحتساء كوب من الشاي ؛ وبعد ذلك بمسافة، في مفترق الطريق إلى زنجان، توقفنا للغداء في قرية سياه دهان، " القرى السوداء "، حيث لاتزال الأكواخ، المهجورة الخاوية الآن، باقية في منطقة تدريب الجيش البريطاني. وتناولت وجبتي وحيداً في أحدها.

بدأت السيارة الآن تلفظ أنفاسها، تعاني أشد المعاناة حين تسير بترس خفيف في أي طريق سهل. فكنت أركب مرة وأنزل مرة حسب مزاج لحظتها الراهنة، وكانت قطرات من المطر الخفيف التي تتساقط أحياناً تجعل من المشي شيئاً ممتعاً. وعلى بعد خمسة أميال من سلطان آباد نفد وقودنا - وكانت الساعة آنذاك هي السادسة مساءً، وإن لم نحرز سوى تقدم يسير طيلة اليوم. وفي يأس، ظللت أمشي، منعشاً نفسي بخيار كنت قد اشتريته من صبي في بستان على حافة الطريق، حتى وصلت الحاجز في سلطان آباد. وبناءً على نصيحة من الروسيين المسئولين عن محطة المرور، هاتفت السيد غاو، التابع للبنك الإمبريالي في قزوين ليرسل لي بعض الوقود، وجلست أنتظر وصوله. وفي تلك الأثناء كان أنطنيان قد اشترى، على نفقتي، تنكة من الوقود بأربعة عشر تومناً من سيارة مارة، ووصل إلى المحطة في اللحظة التي بدأت أتساءل فيها إن كان الروسيان سيتقبلان فكرة استضافتي تلك الليلة. وبالرغم من الظلام واصلنا رحلتنا أملاً منا في بلوغ قزوين. ولكن في الساعة الثامنة مساءً، بينما كنا نزحف في ترس منخفض، وبستمان فقط يعملان، انهارت الماكينة بقعقعة مخيفة. لقد انتهى

أمر السيارة الآن. فمضى أنطنيان يجر رجليه جراً إلى قزوين، ليرسل إلينا مركبة أو اثنتين لحملنا وأمتعتنا إلى المدينة. فجلسنا، أنا وإسماعيل، على جانب الطريق ننتظر في صبر. وبدأ الجوع يعض في أهم أعضائنا. فبحثت هنا وهناك في كرمة مجاورة فوجدت ثلاثة عناقيد من العنب الحلو، أعطيت واحداً منها لإسماعيل. وبعد أكلها جلسنا حتى جاءت مركبتان تتراجفان وذلك في تمام الساعة التاسعة والنصف. فأخلينا السيارة وتركناها في رعاية فلاح، وعادت المركبتان بأقصى سرعة.

وفي الظلام بدا لنا كأن عبور جسور القنوات واختراق الشوارع الضيقة. ولكننا، بعد نصف ساعة، وصلنا سالمين إلى " طريق الشاه "، وأطلقت تنهيدة ارتياح ونحن ندخل بوابة " الفندق الكبير " بعد خمس عشرة ساعة في الطريق منذ غادرنا آوا.

وبدت قزوين كأنها كانت قد عاشت أياماً أحسن من هذه في وقت ليس بالبعيد. فمن حيث التصميم، لا التنفيذ، فإن مخططها كان رائعاً ويتفوق بكثير على ذلك الذي بهمذان. لكن كل شيء كان يبدو في حالة من الخراب، وكان الدمار هو النغمة الرئيسة في المدينة الحديثة. فكل البوابات - المبنية بطراز موحد مكون من ذروة مدرجة لها جسمان بارزان كمئذنتين يرتفعان برشاقة، كل واحد منهما يرتفع من الطرف الخارجي لكل واحدة من الدرجتين - كانت في حالة سيئة، وقد سقط معظم القرميد الجمالي. لقد فقد سور المدينة الدائري متانته، وتم اختراقه في عدة مواضع. والأطلال الرائعة المتبقية من المسجد الجامع - وهي مئذنتان وقبة ضخمة بديعة، كانت رائعة - تحكي قصة الإهمال والدمار. ويقال إن المسجد كان قد بني في موقع معبد للنار. وكانت قزوين قد

تبوأت مكانة مرموقة فقط في زمن الصفويين، حين كانت ولفترة قصيرة العاصمة الفعلية لفارس. لاشك أن " طريق الشاه " أمكنه الاحتفاظ بشيء من عظمته السابقة، ولكن الشوارع المشجرة التي كانت تسبغ على معظم الشوارع الرئيسة بهاءها تركت لتئول إلى حالة سيئة من عدم الاستواء. وداخل أسوار المدينة منازل كثيرة وحيطان تحيط بحدائق واسعة، تركت لتنهار وتصبح خراباً. وبدا لي واضحاً بكل تأكيد في وقت زيارتي تلك أن لا أحد يهمه أن يعيد بناءها من جديد. ففي الظروف الجديدة في إيران، لعل هذا التقويم المتشائم هو أمل خيبت ظنه الأحداث. وإني لا أعلم عن حالة راهنة لمدينة ما أحق منها بالإنقاذ من الفناء الذي يتهددها. "أغار إيران مربي دشت" "فقط لو وجدت إيان من يعتني بها" ، كانت النغمة المميزة لكل الأحاديث التي تبادلتها مع الناس في الأيام القليلة من إقامتي في قزوين. وأخيراً، فإن ذلك الدعاء اليائس قد استجيب. ولا شك عندي أن شيئاً من الأمجاد الغابرة لتلك البلاد إلى حد ما في طريقها للاستعادة. وعلى أية حالة، فإن عندهم شيئاً لم يكن لهم من قبل في أي عهد، مهما كان مجيداً - خط للسكة الحديد يربط بحر قزوين بالخليج الفارسي. وإنه لإنجاز بحق ألا يكون على فارس شكر أية قوة أجنبية لاجتثاث الفساد والخزي اللذين شاناها تحت حكم شاهات أسرة قاجار.

وثمة مفارقة أخرى ملحوظة بين قزوين والمدينتين الجنوبيتين، همذان وكرمنشاه، راعتني بشدة. ففي الجنوب الجو الفارسي غالب بطبيعة الحال، بتتبيلة من أثر بريطاني ويهود بغداد. وفي قزوين فإن الصبغة الغالبة تبدو روسية وأرمنية بشيء من الخميرة الفارسية. فلوحات المتاجر بالروسية في معظمها. وأكثر ما يلفت النظر في مدينة شرقية هو أن النساء، روسيات وأرمنيات في

معظمهن، يتجولن بحرية غير محجبات، في الشوارع العامة. ففي شارع سعدي، الطريق الروسي الواسع، مسرح يومي للتنزه مشياً على الأقدام ساعة قبل الغروب وبعده، زرافات من الفتيات في ثياب زينة يوم الأحد، يصعدن في الطريق وينزلن، بلا غاية واضحة سوى أن يرين المواطنين والمواطنات، ويروهن؛ سيدات حازمات يقدن أطفالهن الصغار لنزهة يومية؛ ومتأنقو المدينة يعرضون كبرياءهم المصطنع ليعجبوا السيدات، وإن كانت الآداب الشرقية، وحسبما أرى، سائدة بما يكفي - كما هو الحال أيضاً في إيطاليا أو إسبانيا - بالفصل بين الجنسين ساعات التنزه العام.

في يوم من تلك الأيام، وأثناء استكشافي المدينة، رأيت مجموعات كثيرة من الناس على سطوح بيوتهم، ينظرون في اتجاه واحد. وسرعان ما علمت أن هناك ناراً عظيمة مشتعلة في مكان ما. وبعد نظرة أولية لها من درجات البنك الإمبراطوري الفارسي في شارع رشت، انطلقت مع أحد الحراس لمكان النار نفسها، مستودع للوقود (أو ورق الأشجار) ملحق بمخبز في السوق. ولأن ألسنة النيران كانت ترتفع عالياً، بدا وكأن ضرراً كبيراً سيقع، فكان أصحاب المتاجر والبيوت المجاورة يجرون هنا وهناك، في فوضى، يحاولون نقل ممتلكاتهم إلى أماكن لا تلحقها النار. وفي هذه الأثناء كانت الشرطة المحلية مسيطرة على الجموع الموجودة على سطوح المنازل وفي الشوارع، بينما قامت بتنظيم فرق من حملة المياه لمكافحة النار، وفي وقت قصير مدهش للغاية تمكنوا من الحصول على عدد كبير من الجواريف التي يقذف بها التراب على الأخشاب المشتعلة. وبهذا حيل بين النار وبين انتشارها، وتم إخمادها في آخر الأمر - وإنه لأداء من الشرطة استحق الثناء، في رأيي، وبخاصة إذا نظر المرء إلى

الوسائل البدائية التي كانت بحوزتهم. وكذلك كان انطباعي حسناً عن السلوك المنظم للجمهور الغفير، الذي تيسر تجنيد معاونين راضين منهم دون مشقة وحسب الحاجة.

وبفضل خطابات تعريفي من همذان، فقد قابلت عدداً كبيراً من الجماعة البهائية في قزوين. وكان زعيمها، ميرزا موسى خان حكيمباشي، كبير الأطباء في المدينة، وإن كان آنذاك قد اعتزل ممارسة الطب، لتقدم سنه وضعف حالته الصحية. ورداً على خطابي، الذي أرسلت معه خطابات التعريف بي، زارني في الفندق مساعده الدكتور عميد الله خان، ودعاني للغداء مع رئيسه، لمقابلة كبار البهائيين في المحلة. وبناءً على ذلك ذهبت بالسيارة إلى بيته في زقاق متفرع من شارع سعدي، واستقبلني لدى الباب الحكيمباشي نفسه - سيد عجوز، وقور، ذو لحية بيضاء وبنية جيدة، وسلوك في غاية من الرقة والتهذيب، ضعيف السمع نوعاً ما. وقادني إلى غرفة، كان مجتمعاً فيها عدد من إخوته في الفكر. وبعد التعريف جلسنا جميعاً حول مائدة غطتها المنعشات تماماً - معظمها من الحلوى والفاكهة. بما فيها العنب المحلي الأسود الممتاز، المسمى شاهاني...

لقد كان الحديث عامّاً. ولمست أن الحضور لم يكونوا مائلين إلى التحدث كثيراً في مبادئ الفرقة وممارساتها. وحدثني الحكيمباشي عن جولة عالمية كان قد قام بها في أيام بهاء الله نفسه، أول زعيم هذه الفرقة[1]. وفي سفرته عن طريق باكو (بدكوبه، كما تسمى) إلى روسيا وألمانيا، زار إنجلترا وفرنسا، وعاد

(١) مؤسس الفرقة البهائية المرزا حسين علي الملقب بالبهاء، توفى سنة ١٨٩٢م. (المراجعون).

إلى فارس عن طريق مرسيليا ومصر وعكا (مقر زعماء البهائيين بعد طردهم من فارس) . إن أعظم ذكرياته عن الرحلة كانت عن روسيا وألمانيا، حيث مر بتجارب مسلية مع موظفي السكة الحديدية، ولكنه، كما قال مفتخراً، أفلت من محاولاتهم الحصول على مكافآت غير شرعية على حسابه .

لقد كانت جدران الغرفة مغطاة بصورة شمسية لمختلف الجماعات البهائية، وأخرى ضخمة لعبد البهاء، الزعيم الثاني والحالي . كما كان هناك رسم تقليدي "للباب" . ولكن أعجب الزخارف الجدارية ما كان يبدو كأنه إطار فارغ، ولكنه عن قرب ثبت أنه يحتوي على عدد كبير جداً من الشعر الفضي أو الرمادي . فهذه يقال إنها، شعرات من لحية عبد البهاء . لقد جمعت في هذه الأسطر القليلة الشخصيات الثلاث الرئيسة في الحركة البهائية . ولا أنوي الخوض في حديث مطول عن الفرقة، التي يمكن لقرائي معرفة تفاصيلها بالرجوع إلى كتب صديقي الراحل البروفيسير براون، الذي كان في جامعة كيمبردج، وغيره من الثقاة . ولكن، على أي حال، إنه لمن المهم تذكر مكانة كل واحد من هذه الشخصيات الثلاث في تطور الحركة وتاريخها . إن مؤسسها الأصلي هو "الباب"[1]، الذي كان نشطاً في منتصف القرن الماضي، ولكنه لم يكن نفسه نبياً، ولم يدع أنه نبي . فمثله مثل القديس يوحنا المعمدان الذي يزعم بأنه سابق للزعيم المنتظر . ولم يدع مجالاً للشك بأن زعامة الحركة، بعد موت الثاني، ستئول لمن يختاره الناس، كائناً من يكون، بالتصويت الحر لكل الأخوة، دون أي ادعاء بوحي . وبعد حين ظهر في شخص بهاء، الذي حكم

(١) الباب لقب أعلنه لنفسه المرزا علي محمد رضا الشيرازي سنة ١٨٤٤م، وسميت فرقته البابية، وتعد هذه الفرقة الأصل الذي قامت عليه البهائية . (المراجعون).

لمدته المقدرة، والذي هبطت عباءته على ابنه عبد البهاء، الذي كان آنذاك حيّاً، يقيم في عكا، وحيث سعدت بزيارته بعد ذلك بما يزيد على السنة. ومات قبل سنوات قليلة، وخلفه في الزعامة المدنية ابنه الأكبر، توفيق، الذي كان آنذاك طالباً جامعيّاً في أكسفورد ! ومع غاندي، وهو قديس آخر، في قائمة طلابها السابقين، فإن أكسفورد يحق لها أن تنسب لنفسها قسطاً ليس بالهين في تكوين الفلسفة الشرقية الحديثة. ولكن، لا غاندي ولا توفيق، ولأسباب شرحناها سابقاً، يقدر على ادعاء أي وحي نبوي. فهما يؤديان دوراً لا يختلف عن أدوار الخلفاء المسلمين الذين جاءوا بعد الخلفاء الراشدين، وإن لم يكن لأي واحد منهما السلطة المدنية التي نادى بها الخلفاء الإسلاميون وبسطوها حتى إلغاء الخلافة العثمانية سنة ١٩٢٤م، وينبغي عليّ مقاومة الإغراء بالتعليق على تطورات الخلافة منذ ذلك العصر، وهو موضوع ثري ولكنه شائك - والعودة إلى الجماعة البهائية في قزوين.

لقد كان الافتراض الأساسي خلال ولاية " الباب " أن جهوده وسيرتي نبيين فعليين من بعده - وكما أثبتت الأحداث، غطتا فترة تقل بشيء قليل عن القرن - ستكفي لتأسيس فكر جديد بحيث لا يخشى عليها بعد ذلك من التفكك لعدم وجود زعيم يدعي وحياً إلهيّاً شخصيّاً مباشراً. ولا شك أن الحركة جاءت في لحظة مواتية لفارس، وأدت إلى اجتثاث المد الصاعد للتعصب الشيعي، الذي كان في تلك الأيام -وبكل تأكيد- سدّاً واضحاً ضد التعليم والتطور - ولكنه، على أي حال، ربما خفت حدته قليلاً في الأيام الأخيرة للصلات التي زادت اتساعاً بالعالم الحديث. ولكن، بعد النجاحات الأولى التي حققتها الحركة بتحويل قسم كبير من الرأي الفارسي إلى أسلوبها

في التفكير - لعلها في خطوط دينية أوسع مما في أية عقيدة أخرى - بدأت البهائية تفقد مواقعها، وفي أرض مولدها، لكل من عدوها الأصلي - المعارضة الشيعية غير المهادنة - وآخر جديد لم يخطر للباب، هو التمدن. لكنها نجحت في الانتشار، إلى حد ما، في بلاد أخرى، في بلاد لاشك أنها كانت ستكون في نظر الباب بعيدة المنال لاتنالها أقصى أحلامه ؛ ولأمريكا اليوم مجموعة صغيرة، ولكنها متماسكة، من العنصر البهائي، يحيي ذكرى حركة لا أهمية تذكر لها في الشرق الأوسط الآن، وذلك حسبما يراه المرء.

لقد بدا لي من صلاتي ببهائيِّيِّ همذان وقزوين أن الحركة - فيما عدا مبادئها الاجتماعية العامة، وهي أشياء مهمة لأية حركة دينية ذات تأثير - كانت قد بدأت تعاني من ضعف داخلي، شأن العقائد الدينية. وذلك كان الميل إلى الشكلية المتعصبة، التي أراد بها أبطالها ألا تكون سوى نقطة تجمع للأتباع الملتزمين بهذه العقيدة، ولكنها أقرب لأن تنال أهمية أكثر مما تستحق في مخطط جماعتهم، فتضعف فرص الحركة في قبول أوسع في عالم آخر مختلف، كان اتجاهه ولا يزال التخلص من شباك الدين مرة واحدة، لا اتباع دين جديد. وكما أن القشة تحدد اتجاه الريح، فقد بدا لي أن تلك الشعيرات القليلة، من لحية نبوية، في إطار خال تنبأت بالفشل الحتمي لحركة كان بها عدد من السمات الجديرة بالإعجاب التام. فهي، مثلها مثل الاشتراكية السياسية، من النوع الديمقراطي، بدأت كأنها تخشى بعضاً من مثلها العليا نفسها، الأكثر ثورية.

وما تبقى من العصر قضيته في الحديقة العامة الكبرى، التي تملأ الزاوية المكونة من ملتقى شارع سعدي وطريق الشاه. وأثناء تجوالي جلست على مقعد طويل يواجه بناءً كبيراً يبدو أنه كان خالياً. وكان هناك عدد كبير من الناس،

يستمتعون بظل الحديقة وسحرها. وكان من بينهم عدد كبير من ضباط الجيش في ملابسهم العسكرية، من بينهم واحد كان من الواضح أنه أهم الآخرين وآنقهم، يسير غارقاً في حديث جاد مع صديق له في ملابس مدنية. ولمست جواً من الجمود، كأنه جو انتظار. ولكني لم أشغل نفسي به سوى ظني أن الحاكم، الذي كان قصره يقع في نهاية الطريق الرئيس المشجر في الحديقة، سيخرج بسيارته أو مشياً. وصادف أن مر الرجل الأنيق وصاحبه قريباً من مقعدي، فدفعني حسن التأدب للنهوض وتحيتهما بالتحية الرسمية على شفتي. فوقفا بلطف وتحادثا معي مستفسرين عني وعن المكان الذي جئت منه. ومن جهتي سألتهما إن كان البناء الكبير في نهاية الطريق المشجر هو مقر الحاكم. ولما أجابا بالإيجاب، تجرأت بالسؤال إن كانا والآخرين في الحديقة ينتظرون ظهور الحاكم. قال الرجل المدني: "إنه الحاكم نفسه زود قوفتي – لقد تسرعت في الكلام!"، وضحك الحاكم جذلاً، فاعتذرت بشدة لسوء أدبي. لكنه سرى عني، ووقفنا نتحادث لبرهة أخرى حتى نفدت كل موضوعات الحديث اللائق. وهكذا نلت شرفاً غير متوقع لم أسع إليه، وذلك بلقاء خدايار خان، الحاكم العسكري لقزوين لم أر من اللائق أن أسعى لمقابلته بوصفي سائحًا يقيم في فندق. ولكن الحظ حالفني. لقد كان شخصاً رائعاً، رجلاً منتصب القامة – جندياً في كل ذرة من جسمه. لقد كان هناك، حاكماً عسكرياً لمجاورة منطقة قزوين لمنطقة الحرب التي تشمل رشت ومازندران، حيث كانت القبائل، بمساعدة فعالة من قوات البلشفيك، قد ثارت حاملة السلاح، ولم تخضع بعد. ولقد علمت من مصادر أخرى أن خدايار، كمسمى من قبل مجلس وزراء سيد ضياء الدين الذي كان قد زحزح عن السلطة، قد يستبدل بشخص

آخر في وظيفته الحالية حالما وجدت الحكومة الحالية، التي جاء بها انقلاب، الوقت مناسباً لإجراء تغيير. ولا شك، إذن، أنه لم يستمر طويلاً بعد محادثته الودية تلك معي. والذي لفت نظري بشدة عندما أرجع بذهني للوراء هو أن انقلاب رضا خان، الذي كان مقدراً له أن يكون حدثاً بادئاً لعهد جديد، لم يزل كما لو كان معلقاً، لا يعرف ما يؤدي إليه. ففي المستقبل القريب أو البعيد قد يفشل، مثله مثل الحركات الثورية الأخرى في فارس وغيرها. وسمع الناس شائعات، همسات خافتة بطبيعة الحال، عن استيلاء ضابط عسكري لمقاليد السلطة، يتذكره بعض الناس بأنه، وحتى عهد قريب، كان ذلك العريف في حرس إحدى المفوضيات الدبلوماسية. فإذا كانت فارس قد بدأت فصلاً جديداً ومهمّاً جداً في تأريخها شيء غائب عني تماماً - ومنه استنتج أن أولئك الذين كانت لهم معرفة طويلة بالبلاد لم يكن لهم آنذاك انطباع طيب عن مستقبل النظام الجديد. وعلى أي حال، فإن سلطته الفعلية آنذاك لم تكد تتجاوز حدود طهران.

والآن فإني أصبحت متوجهاً إلى العاصمة نفسها. لقد كانت أوليات رحلتي أشد تعقيداً وحزناً من تلك الأشياء المجهولة التي وسمت رحلتي من همذان. لقد كانت خطوة أولى وضرورية زيارة النظمية، أو رئاسة الشرطة، مع ما صاحبها من قدر كبير من الانتظار لأجل اللياقة. وأثناء الانتظار رأيت جماعة من السجناء البلشفيك، من الواضح أن القوات الفارسية قد أسرتهم أثناء العمليات العسكرية الأخيرة في مازندران. وكانت المفوضية الروسية في طهران حريصة على الحصول على إذن بإطلاق سراحهم. ولهذه الغاية أرسلت الملحق العسكري، وهو ضابط أنيق من سلاح الفرسان، لمقابلة السلطات في

قزوين، التي كانت بها كتيبة من القوزاق - بقية من النظام القديم لم يقض عليها بعد. وكان مثلي نزيلاً في الفندق الكبير، المبنى الواسع المطل على طريق الشاه، ويملكه أرمني يقدم لنزلائه سكنى كسكنى القصور، وطعاماً متوسطاً. ففي أيام الاحتلال البريطاني لم يكن لديه عذر للشكوى من تجارته. أما الآن فإن عليه أن يقتصد في الإنفاق. إن عليه دفع إيجار شهري قدره أربعون تومناً، بينما الغرف العشرة، أو تزيد، والتي أجرها اليومي تومان واحد، لا يشغل منها سوى ربعها - أو نصفها في أحسن الأحوال. وكان من زملائي النزلاء تاجر من باكو، ادعى أنه سويسري فرنسي، وإن كان يعرف قدراً يسيراً من الفرنسية مما جعلني أعتقد أنه ألماني، طالت إقامته في روسيا. وأكمل قائمة النزلاء في تلك الأيام ضابط فارسي وسيم، وآخر في خدمة الملحق العسكري البلشفيكي.

بعد انتظار طويل سمح لي بالمثول أمام حضرة الرجل الثاني في مكتب الشرطة، الذي حصلت منه على إذن بدخول طهران. ثم حولت إلى كاتب ليكمل الإجراءات الضرورية، والذي احتار في اسمي، ولكنه لم يجد مشقة في تقدير سني وجنسيتي. وعلى أي حال، فإنه كتب " أرمني - ٢٢ سنة " في الخانة المناسبة في سجله. فتركت الملحوظة الثانية - تمر بلا اعتراض كإطراء عابر لملامحي الشابة - وعلى أي حال فليس ثمة اختلاف بين اثنتين وعشرين وست وثلاثين. ولكني اعترضت على أرمني، وإن كنت تساءلت آنذاك ألم يكن من الأسلم أن أصرف النظر عنها. وتم التصحيح المناسب في السجل سألني ناظراً إلي: "أي لغات؟ اللغة الإنجليزية؟ كتب دون أن ينتظر إجابتي "نعم. والفارسية ؟" فصاح الشرطي الذي كان قد قدمني قائلاً: "قليل جداً". ولكن

الإقرار الأخير غير المحتمل هذا لم يكن يستحق التدوين أو الاستقصاء من الكاتب.

وبعد وضعي الإذن في جيبي انصرفت، في إعجاب بحديقة الزهور التي في الفناء والتي تستحق الإعجاب وكانت بوابته الضخمة، المواجهة لطريق الشاه، ذات هيبة وروعة بغطائها الكثيف من الزخرفة بالقرميد. وفي صباح اليوم التالي جاء أنطنيان بالسيارة إلى الفندق متأخراً ساعتين. ومع ذلك، فإنه كان قد رهن كل إطاراته الاحتياطية وأنابيبها مقابل ديونه، التي لم أتبين طبيعتها. وبالإضافة إلى ذلك فإنه لم يكن لديه وقود أو نقود. فرفضت مساعدته، ورفض دائنوه، الذين كانوا قد جاءوا معه، أملاً منهم في تحويل الإطارات إلى نقود، التخلي عن الأولى أو تزويده بالوقود. وبعد كثير من الجدال، تصاحبه صيحات في غير وقتها من عشرات الشحاذين، جعلت أنطنيان يمضي بي إلى النظمية حيث عرضت قضيتي على نائب رئيس الشرطة، الذي تصرف تصرفاً معقولاً قائلاً لأنطنيان " لقد عقدت صفقة بأخذ هذا السيد إلى طهران. فإما أن تفعل هذا أو تعيد إليه أي سنت دفعه لك" . وفي هذ اللحظة دخل رئيس الشرطة الغرفة - رجل ضخم في بزة أنيقة، وفيه صرامة. وبعد سماعه الخصومة، دعا الأرمني للدخول في غرفته الخاصة، والتي طرد منها الأرمني إلينا بعد عبارات صارمة، خائفاً ومهيناً. فخرجنا معاً، وقلت لأنطنيان: "والآن، إن كنت تريد رؤية ذلك الرجل مرة أخرى، فقل لي. أتفعل؟" . ورفض الرجل المرهونة له الإطارات، والذي كان صاحب الوقود الذي نحن في حاجة إليه، التخلي عن أي منهما ما لم يدفع لهما - وهو موقف سليم. فقدمت إنذاراً للسائق. " سأشتري الإطارات والوقود، ولن أدفع لك سنتاً واحداً آخراً مما اتفقنا عليه، وسأحتفظ

بالإطارات حتى ترد لي قيمتها. فإن كانت لك ظلامة في هذا، فيمكننا زيارة السيد في النظمية في أي وقت، فهو الشاهد بيننا ". فكان هذا كافياً. فدفعت ثمن الإطارات والوقود، ونفذت وعدي في طهران، إلا أني، بعد تركه في قلق يومين أو ثلاثة، أعدت إليه إطاراته التي لم تكن ذات فائدة لي. لقد كان صافي صفقتي مع أنطنيان، الذي لم ينل ولم يستحق أي تقدير مني لسلوكه غير المهذب تماماً، إن رحلتي من همذان إلى طهران كلفتني ١٤٠ تومناناً، بدلاً من ١٤٥ بالإضافة إلى الإكراميات - توفيراً لمبلغ ثلاثة جنيهات على الأقل، مع قسط وافر من التسلية والتثقف.

وفي الخامس عشر من أغسطس، انطلقنا، ولم أكن آسفاً لمغادرتي قزوين، بمبانيها المتآكلة وشحاذيها المزعجين. لكن الرحلة التي أعقبتها كانت عذاباً. فالسيارة لم تكن صالحة حتى لرحلة مئة ميل. فصرت التروس، وتعثرنا هنا وهناك في الطريق الذي لم يكن ممتعاً أو صالحاً بأي حال من الأحوال، حتى الساعة الخامسة والنصف مساءً، حين وصلنا خبر خانة (مكتب بريد) حشمت آباد، نحو نصف الطريق إلى العاصمة، بعد ست ساعات من السفر. فقررت قضاء الليلة هناك، وأمضيت الوقت حتى الغروب متسلقاً أعلى جبل خارج من سلسلة البرز. ونمت على سطح مكتب البريد، حيث وجدت الشرطة لطيفين جداً، والعنب المحلي خير بديل عن العشاء.

ولم نصل إلى طهران إلا ظهر الغد، بعد اثنتي عشرة ساعة من السفر الفعلي لقطع المسافة من قزوين. وبعد حشمت آباد بقليل - التي تعد نقطة الوسط بين قزوين وطهران - مررت بالضريح الجذاب، لإمام زاده ينقي إمام. ووراءه كانت تلال منخفضة أو أكوام لابد أنها كانت مواقع لقرى قديمة أو

حصون. ثم بلغنا قرج، وهي قرية ببوابة لتحصيل رسوم الطريق وجسر فوق سيل جارف على الجانب القريب من سلسلة شمران التي تحجب طهران عن الجنوب الغربي. واستغرقنا وقتاً طويلاً لنلتف حول الأطراف الناتئة من السلسلة لنصل سهل طهران. لكن عدداً من القرى الجذابة على سفح الجبل كبحت جماح تعجلي لرؤية العاصمة، بينما كنت أتساءل أية واحدة من هذه القمم الكثيرة من سلسلة البرز أمامنا قد تكون هي دموند نفسها. وفجأة زال كل شك عن ذهني. فعلى البعد، وإلى اليسار في زاوية قائمة مع طريقنا، في غير الاتجاه الذي كانت أعيننا مسمرة فيه، يقف المخروط العظيم، يعلو رأسه وكتفاه فوق أي شيء آخر في السلسلة الممتدة على جانبيه. لقد كان جميلاً بأخاديد الثلج فوقه، الملتقية في ذروة كلها بيضاء، وخيوط رفيعة لولبية من الدخان تتصاعد منها في الهواء. لقد كان رائعاً حقّاً، كاملاً في هيئته، وأعتقد أنه أجمل جبل رأيته مطلقاً. وفي الوقت نفسه تقريباً، ظهرت أمامنا الرقعة السوداء القاتمة، التي هي طهران، تتوهج الشمس فوق قبة شاه عبد العظيم الذهبية إلى الجنوب الغربي منها. لقد كانت كتلة سوداء من النبات لا يرى فيها بناء واحد - كما ترى من هذه الناحية على أية حال. فطهران، في عباءتها من الخضرة، تقع في منخفض اتجهنا نحوه، هابطين منحدراً يسيراً. وبعد تجاوز بعض المنازل في طرفها، وصلنا الخندق المائي والاستحكامات التي تحيط بالمدينة تماماً. وباب قزوين، الذي دخلنا منه، شيء حديث، بقرميد ومآذن بلا شيء مميز لها. وفحص الأذن الذي معي وأعيد لي مع توجيه بتبديله بإذن رسمي من النظمية - وهو شكلية تجاهلتها بلا عواقب وخيمة. ثم واصلنا السير في شوارع واسعة، وطرق مشجرة، إلى

طريق (خيابان) علاء الدولة حيث حططت الرحال في باب فندق فرنسا (أوتيل دو فرانس).

وكان اليوم آنذاك هو السادس عشر من أغسطس، وكنت قد استنفدت نحو خمسة أسابيع من عطلتي. لقد كان الفندق متواضعاً، ولكنه كان مريحاً بما يكفي، به عدد قليل من الخادمات الروسيات لخدمة النزلاء. ومن الأخيرين كان شاب روسي، في مهمة رسمية حسب اعتقادي، أراني بعض حياة الليل في طهران، التي بدت في معظمها تدور حول عدد من أوكار القمار. وبما أنني لم أكن مدمناً للروليت أو غيرها من الأنواع ذات الشعبية من القمار، فلم أجد ذلك مسلياً. ولكن، فيما بدا لي، ليس هناك سوى القليل من البدائل. أما النهار فقد كان مليئاً لوجود الكثير مما يمكن أن يرى في المدينة - بعض الأبنية الرائعة، والشوارع الرائعة، والساحات، وفوق ذلك كله، السوق الذي يمكن للمرء التجول فيه بلا نهاية وبلا تخمة، والذي اشتريت منه كمية من الأبسطة والسجاد مستعيناً بتجار كنت حملت إليهم خطابات تعريف من بغداد. وواتاني الحظ بأني وافقت احتفالات المحرم، التي وقعت هذا العام في الشطر الأول من سبتمبر. وأعتقد أن التشريعات الحديثة، مواكبة للاتجاهات العصرية للبلاد، قد خففت من الواقعية البالغة التي وسمت مسرحية المعاناة العظمى للشيعة، والتي يستحوذ أثناءها على السوق وكثير من الشوارع المجاورة له في العاصمة، بلا تحفظ، في أيام الاحتفال. وكنت قد شهدت احتفالات المحرم في مدن أخرى في الهند وبلاد الرافدين، ولكن لم أشهدها مرة أخرى منذ تجربتي في طهران، ذلك لأن حياتي منذ ذلك الوقت خرجت خروجاً يكاد يكون كاملاً عن دائرة النفوذ الشيعي. ولكني لم أر في أي مكان شيئاً أضخم وأفظع مما في العاصمة الفارسية.

ولكن كانت هناك سمة لزيارتي في العطلة لهذه الأماكن التي، وإن لم تكن متفردة بأي حال من الأحوال قد كانت في ذلك الوقت غير عادية بالقدر الكافي الذي يجعل منها تاجاً فوق تجاربي الفارسية. لقد كنت عرفت قرائي بأجمل جبل في العالم، وكنت اعترفت بنزعة لا علاج لها هي النظر إلى العالم تحتي من أعلى نقطة يمكن الوصول إليها. لذلك لم يكن غريباً ذلك التبلور التدريجي في صدري برغبة في رؤية فارس من قمة دموند. وبالإضافة إلى ذلك، فإنه كانت لي صلة خاصة بذلك الجبل ترجع إلى سنوات خلت حين اختبرني السير جورج غريرسون في اللغة الأردية كموظف تحت التجربة في الخدمة المدنية الهندية وأعطاني درجات عالية سخية، ولكنه فيما بعد أسر إلي في خلوة بأن إجابتي بالأردية كانت مشبعة بدرجة عالية من وباء فارسي. ولمعالجتي من هذا الداء قبل أن يستفحل أشار علي بقراءة قصة عنوانها "فردوسي برين"[1] (وإنه لعنوان فارسي جيد كما ينبغي ملاحظته) لمؤلف من القرن التاسع عشر اسمه عبد الحليم شرار. لقد أحسن صنعاً بإهدائي من فوره نسخة من ذلك الكتاب. وإني لم أقرأه فحسب، ولكني قمت بترجمة له لتثقيف طلاب اللغة الآخرين. ولعل مخطوطتي القيمة لا تزال محفوظة في أرشيف لجنة الامتحانات في كلكتا. ولكنها، وحسب علمي، لم تنشر بعد. وزيادة في الأسى فإن مسرح القصة معد في جبال البرز هذه نفسها، التي تاجها دموند نفسه، والذي حوله حيكت قصة الرجل العجوز والجبل وجنة الحشاشين الأرضية.

أقر فردوس بروي زمين أست همين أست! همين أست! همين أست!.

(١) «الجنة العليا». (المترجم).

يقول: إن كانت الفردوس توجد على وجه الأرض فإنها هذه، هذه، هذه!.

أما كيف يمكن تحقيق طموحي فلا أدري. ولكن أثناء إقامتي في طهران فإنني، بطبيعة الحال، اتصلت بالمفوضية البريطانية، التي كان يرأسها آنذاك كوزير السيد نورمان. فكان يقضي جزءاً من وقته بالمفوضية، ولكنه في وقت الجو الحار كان يهاجر مع موظفيه إلى جنبات شيمران الألطف جواً، حيث كان للوزير مقر صيفي في قلهك، تلك المحطة البديعة على سفح الجبل التي تكتفى بشكل كبير بهجرة الأوربيين الصيفية. ولذلك وافقت فوراً على الاقتراح بأن أذهب إلى هناك لإقامة قصيرة. وصادف أن كان هافارد (السكرتير الشرقي الذي كان معي في كيمبردج قبل ثلاث عشرة سنة، ولم يزل بطهران منذ ذلك الوقت)، وبيتمان، وماليت، وآخرون من الموظفين ينظمون رحلة إلى نهر لار، المشهور بسلمونه المنقط. فانضممت للرحلة التي أوصلتني إلى معسكر لصيد السمك في أسفل دموند. وهناك أسهمت في اصطياد السلمون بأسلوب الهاوي، وأكله بأسلوب المحترف. ولكن للدبلوماسيين المشغولين وقتاً قصيراً لمثل هذه التفاهات. لذا لما قفل الجميع عائدين إلى قلهك، انطلقت وحيداً بجراب وسنارة صيد السمك في الاتجاه المعاكس في اتجاه مجرى لار. وكنت أصيد السمك وأنا أسير؛ ولكني قمت بشيء بليد. ولأن قسطاً كبيراً من وقتي كان في الماء، وأن الجوارب المبللة غير مريحة أبداً، فإني قررت خلعها والمواصلة جذلاً في لباسي القصير وحذائي القماشي. وظللت سائراً اليوم كله، متسكعاً كما أشاء، حتى بدأت أشعر أن الشمس الحارة بدأت تغزو ساقي المكشوفتين المبللتين والمجمدتين بالماء البارد كالثلج.

وفي وقت متأخر من العصر، وبعد تدحرجي مرة أو مرتين على السفح المنحدر، والمغطى بالحصى الخشن، وكسر سنارتي أثناء ذلك، أصبحت في ألم مبرح. وكان الأوان قد آن لأفكر جاداً في كيفية تمضية الليلة ومكانها. ولأن زادي المحدود كان قد نفد في الغداء، فلم أحلم بطعام - فالمرء لايصطاد السلمون بسنارة مكسورة - إلا أن أصل قرية أسك، الصغيرة على ضفة النهر، التي تبعد مسافة من هنا. لذلك تركت النهر واتجهت نحو درب البغال في موضع أعلى. ولكن، في حالتي المؤلمة تلك، لم يكن ذلك الأمر بالسهولة التي بدا بها أول وهلة. فبلغت الدرب بعد طلوع صعب، وبدرجة من الإنهاك وفي وقت متأخر (وقت الغروب تماماً) مما جعل آمالي بوصول القرية تبدو ضئيلة. وبعد ساعة من السير المضني، مررت على جماعة من أصحاب البغال الأكراد، مع نسائهم، مخيمين على قارعة الطريق. فقررت الاستسلام، والتماس ضيافتهم، التي جادوا بها علي بجفاء ومضض. لقد كانت وجبتهم حليباً وخبزاً جافاً. وكان ذلك خيراً كافياً لي. ولكن الجو آنذاك بدأ يبرد جداً - لقد كنا على ارتفاع نحو ٧٠٠٠ قدم فوق سطح البحر - وكنت أرتجف بشدة فيما عدا قدمي اللتين كانتا تشتعلان ناراً. فاضطررت لأن أطلب غطاءً. فجاءت إحدى النسوة بغطاء من جلد الغنم، بالغ القذارة، وبعض الأقمشة الخشنة فافترشت وتغطيت بذلك بلا كلفة لأقضي ليلة عذاب فعلي لاينسى. وكان لمضيفي شكل القتلة المحترفين. فقد كانوا ضخاماً، أقوياء، فظاظاً. ولكن نساءهم كن مليحات وعطوفات. وفي الصباح اصطحبتهم، راكباً بغلاً، كل خطوة من خطواتهم تسبب لي ألماً مبرحاً، حتى وصلنا أسك، حيث قررت قضاء اليوم في حضارة نسبية. وعلى أي حال، استطعت شراء بعض الأكل

هناك. ثم إن أسك مكان غير عادي لأن بها مؤسسة للعلاج الحراري، متطورة، وحمامات كبريت. فكافأت مضيفي لتلك الليلة بالسخاء الذي قدرت عليه، وبقيت في أسك، مستلقياً لأريح قدمي المؤلمتين، ومستحمّاً في مياه الكبريت فترات خلال اليوم.

وفي اليوم التالي، شعرت بتحسن، وإن كنت لا أزال أعرج لأن جلد رجلي كان متورماً ومتسلخاً. ومع ذلك، فإني ما كنت ليحال بيني وبين تسلقي، فقررت أن أقضي النهار في قرية صغيرة على صفحة الجبل، يراها المرء من أسك، وترتفع نحو ٢٠٠٠ قدم فوق سطح البحر. وبشيء من الصعوبة تمكنت من بلوغ ذلك المكان في وقت مبكر يكفي لأخذ قسط كافٍ من الراحة وللبحث عن إمكانية الوصول إلى القمة مع أهل القرية، الذين وجدت من بينهم رجلاً عجوزاً، قوياً، مليئاً بالحيوية، لا يقل عن السبعين في عمره، الذي أكد لي أننا إن بدأنا بداية مبكرة فإننا سنتمكن من صعود الجبل والعودة قبل حلول الظلام. وذلك يعني نحو اثنتي عشرة أو ثلاث عشرة ساعة من المجهود المضني. فاستأجرت خدماته للغد بالأجر الذي سماه ثم تحصلنا على زادنا لذلك اليوم، بعض الشاي وغلاية الماء - وأصبح كل شيء جاهزاً.

وفي أولى علامات الفجر انطلقنا. وكان منطلقنا نحو ٨٠٠٠ قدم فوق سطح البحر، حسب قراءة الأنيرويد (مقياس الضغط غير المائي)، وهدفنا نحو ١٩٠٠٠ قدم. وكنت قد تحسنت كثيراً، ولكني لم أكن في حالة تناسب صعود ١١٠٠٠ قدم ونزولها. ولعل الأمر بعد راحة يوم آخر كان سيختلف جداً. ولكني كنت حريصاً على عدم إضاعة أي وقت بلا ضرورة. ففي المراحل الأولى، على أية حال، لم تكن في الصعود صعوبة تذكر - لقد كان مجرد

مشي صعب، لا أكثر. فالمنحدرات السفلى من الجبل، إلى ارتفاع ١٢٠٠٠ أو ١٣٠٠٠ قدم، كانت مغطاة بأشجار منخفضة وأعشاب. وبعد حين وصلنا تلك النقطة. وما وراء ذلك كان حصى وصخوراً، عارياً تماماً، بلا حشائش أو نبات من أي نوع.

وقرر مرشدي ترك غلاية الماء هناك لنأخذها في طريق عودتنا - فبلا وقود للنار، فلا معنى للتفكير في الشاي. وهكذا مضينا، ببطء لكن بتقدم مستمر، حذرين جداً في أماكن الحصى. وعدا ذلك، فقد كان سيرنا سهلاً نوعاً ما. وعلى ارتفاع ١٦٠٠٠ أو ١٧٠٠٠ قدم جئنا على أسفل خيوط الثلج، وأصبح السفح أشد انحداراً ولكن كان هناك كثير من الصخور التي تعطي المرء موطئاً لقدم أو مقبضاً ليد. لكن المجهود أصبح مضنياً أكثر فأكثر، وبدأت رجلاي تؤلمانني مرة أخرى. فاضطررت للجلوس لأستريح فترات عديدة، وتحتم أن يصبح تقدمنا أبطأ فأبطأ، بينما كانت الشمس التي لاترحم تبدو مسرعة بلا توانٍ. فجاهدنا صاعدين، والدليل يشجعني مرحاً، متقدماً أمامي كالشاب. فشعرت بخجل شديد لتفوقه علي، ولكني كان لي عذري المشروع في رجلي البائستين. وتفهم مشكلتي. وازداد الثلج كثافة كلما قاربنا القمة، واقتضى الحذر. ولكني صعدت أعرج في دفعات قصيرة واستراحات فيما بينها. وفي نهاية الأمر وقفنا فوق القمة العظيمة لدموند، على شفة فوهته المغطاة بالثلج، التي كانت تتصاعد منها خطوط رفيعة من الدخان، هنا وهناك. وكانت الساعة آنذاك الرابعة مساءً، وقد استغرقنا نحو اثنتي عشرة ساعة في الصعود. ولم نك لنضيع مزيداً من الوقت على القمة، كما أنه، في واقع الحال، لم تكن بنا حاجة لذلك. ولعظيم خيبة أملي، فإن المنظر الشمالي كله، بما في ذلك الغابات على

جانب البرز وبحر قزوين، كان مغطى تماماً بسحب كثيفة. أما جهة الجنوب، الخالية، من أية سحب في السماء، فإننا كنا نرى نحو مئة ميل أو أكثر فوق طهران وقلهك والسهل الفسيح وراءهما، بين حواجزه الجبلية وعلى كل جانب منها، وفي البعد، امتدت سلسلة جبال فارس الشمالية العظيمة، بارتفاع نحو ١٢٠٠٠ أو ١٣٠٠٠ قدم، لكنها كالقزم بجانب القمة الشامخة المتوحدة التي وقفنا عليها. وهبت ريح باردة لتثنينا عن أية مراودة للنفس بالمكث هنا. فكان لابد أن ننزل لأسفل من خط الثلج قبل حلول الظلام، كما كانت الشمس، وبصورة غير مريحة، تؤذن بالغروب وراء التلال البعيدة. فجمعت بضعة من الكتل الصغيرة من الكبريت من الفوهة ذكرى لزيارتي، ثم بدأنا نزولنا.

ولئن كان الصعود مضنياً، فإن النزول لم يكن سهلاً بأي حال من الأحوال. ولقد سقط كل واحد منا مرة أو مرتين في استعجالنا لتجاوز منطقة الثلج، الشيء الذي نجحنا فيه قبل حلول الظلام فعلاً. وبعد ذلك، وعلى الحصى، كان نزولنا معاناة فعلية، ونحن نتحسس طريقنا، وقد أصبح الجو بارداً جداً. وغدا تقدمنا بطيئاً جداً، وبدأ العذاب يؤثر على دليلي أكثر مما فعل بي. ولعله البرد، ذلك الذي فتك به. ومهما كان السبب فإنه صار يتصرف بغرابة، إذ يسقط فجأة على الحصى شاكياً من البرد. فحثثته على السير، وأخبرته بأننا عندما نصل إلى غلاية الماء والنبات، فإننا سيمكننا التوقف، مع نار تدفئنا، ونغلي الماء للشاي. فيقفز عائداً لنشاطه مرة أخرى. ولكنه في مرة من المرات تعثر فسقط. ولا أظنه آذى نفسه، لكنه بدأ يبكي كالطفل. وانزعجت كثيراً حين رأيت أسنانه تصطك. وفككت أزرار بذلتي واحتضنته بشدة حتى ألفها حوله معي لأدفئه. وبعد برهة عاد لطبيعته بالقدر الذي جعلنا

نحاول التقدم مرة أخرى. ولم يكن لدي أدنى إدراك بالمسافة التي قطعناها في هبوطنا. ولكن دليلي مال فجأة إلى جوار صخرة منتصبة ورفع الغلاية ملوحاً بها في وجهي بصرخة انتصار جشة كالخنزير. لقد كان مذهلاً لنا فعلاً كيف التزمنا التزاماً دقيقاً بمسارنا في ذلك الظلام الداكن - لاشك أنها الغريزة، هي التي وجهته.

وعلى أي حال، أدركنا أننا قد وصلنا منطقة النباتات. لكن محاولاتنا الأولى لإيقاد النار في الطحالب المبتلة والأعشاب الخضراء باءت بفشل تام. وأسفل من ذلك قليلاً عثرنا فعلاً على وقود مرض، وإن كان سريع الاستهلاك، ونجحنا لأول مرة في إدخال شيء من الدفء في أجسامنا المتجمدة، ونحن جلوس حول الغلاية التي استغرقت وقتاً غير معقول للغليان. وكان الشاي ذا أهمية قصوى لنا، ولم يك ثمة شيء آخر يشغل همنا- لاشيء سوى تحسس طريقنا في النزول بين الأشجار القصيرة المتكاثرة. وأخيراً ظهر أول خيط للفجر الكاذب في السماء الشرقية، ليذوب قليلاً قليلاً في الضوء الخافت للفجر، الذي اتسع رويداً رويداً في فيض وردي، مبشراً بالنهار، ودار فوق رءوسنا سرب من الحجل نازلاً من الجبل كالشبح، واختفى بعيداً تحتنا. وسرعان ما بدت غير بعيد القرية الصغيرة التي كنا قد بدأنا منها صعودنا، قبل نحو خمس وأربعين ساعة. وأصبحنا شاكرين حقّاً حين قابلنا الدفء المعبق بالدخان في كوخ الدليل، حيث اضطجعت فوراً لأنام - ونمت نوماً عميقاً.

أثناء النهار تجولت في شارع أمول حتى انتهيت إلى منتجع صحي، اسمه آبي قرم (معناها "الماء الحار") أسفل سفوح دموند وفوق وادي لار، الذي يخترق الحاجز الجبلي العظيم متجهاً إلى بحر قزوين. وهذا المنتجع الصحي لايأتيه

المستشفون الأوربيون كثيراً، لكنه يأتيه أهل البلاد بكثرة، وترتيبات السكن والطعام لزواره ممتازة. فبت تلك الليلة هناك أملاً في معالجة الحمامات لرجلي المجروحتين، ولست بحاجة لأكثر مما قلت في هذا الموضوع، فعند عودتي إلى قلهك احتجت للعناية المتمكنة للدكتور نليغان، طبيب المفوضية، لفترة طويلة من الزمن قبل أن أصبح قادراً تماماً على القيام بالرحلة الطويلة عائداً إلى بلاد الرافدين. لقد امتازت حمامات آبي قرم بصفة خاصة بتوافر الماء الحار (الحار جداً) والبارد (المثلج) معاً. وكل حمام به حوض سباحة مبني بناءً غير جميل من الحجارة، وهو محجوب عن أعين عامة الناس بحائط من الحجر، مسقوف. وتنقل الماء إلى الحمام قناتان متلاصقتان نوعاً ما، إحداهما للماء البارد والأخرى للحار. لذا فإن المستحم بمقدوره التحكم في حرارة الحمام كيفما يشاء، وذلك بسد إحدى القناتين أو الأخرى. ويتحول الماء المسدود بمخرج آخر إلى الحمامات السفلية، ثم يعود في آخر الأمر إلى مجراه الرئيس مرة أخرى. إنها منطقة ساحرة لمنتهى أملي. وبعد يوم كامل هناك، استأجرت بغالاً بأصحابها لنقلي عائداً إلى أسك، ومنها عبر الجبال على الضفة اليمنى من لار إلى قلهك.

فمع صعود دموند في رصيدي، تسنى لي بعد بضعة شهور، وحين وقفت على شواطئ البحر الميت، أن أطالب بفرق ٢٠٠٠٠ قدم بين أخفض البقاع وأعلاها، التي وطأتها قدماي على وجه الأرض. وربما يطالب كثيرون بالقدر نفسه، ولكني أستبعد أن يطالب شخص ما، إلا أن يكون من متسلقي الجبال، بأكثر من ذلك - وأنا قطعاً، لست بمتسلق للجبال. والآن بدأت أشعر بأن الأوان قد حان للعودة إلى بغداد. وفي هذه الأثناء بدأت طهران تروق لي أكثر

فأكثر كلما امتدت صلاتي الاجتماعية. وكانت لعبة البريدج، العنيفة المزعجة أحياناً، هي الوسيلة الأساسية للترويح - إن أمكن وصفها بذلك. فعلى مائدة البريدج يتعرف المرء على كل أصناف الناس وأحوالهم. وتنمّى الصلات التي تنشأ بهذه الطريقة بمآدب عشاء كمقدمات لمزيد من البريدج إلى الساعات الأولى من الصباح.

لقد كانت، حقيقة، حياة نموذجية " لمحطة جبلية "، للسعداء فيها أوقات محددة، لاتناسب لعب البريدج بالمقاييس المتحضرة، مخصصة للعمل الذي عليه يعيشون أو يكتسبون به شهرة، لكن العاطلين أمثالي لا تحق لهم الشكوى إن أمضوا بعض ساعات الخمول في مثل هذا المحيط اللطيف. ولو قدر لي أن أختار أحداً، من بين الأسرة الأوربية، كشخص متميز في حشد من المواهب، فأعتقد أنه سيكون السيد و. أ. سمارت، الذي هو الآن ومنذ سنوات طويلة السكرتير الشرقي في دار المندوب السامي (الآن سفارة) في القاهرة. فبعض الإنجليز في الشرق، وبخاصة أولئك الذين هم من الطبقات الرسمية، يحيون، كما لو أن رائحة كريهة ما تحت أنوفهم طيلة الوقت، فيصعرون الأعضاء المتأذية من أجسامهم، فيعطون انطباعاً بأنهم يشعرون، شعوراً لامبرر له، بأهمية وجودهم أنفسهم. ولكن سمارت لم يكن من ذلك النوع. لقد كان امرءاً يعرف معنى الحياة، لغوياً متمكناً إلى درجة عالية (في كلتا اللغتين الفارسية، التي كانت حبه الأول، والعربية، عروس سنوات نضجه)، ورجلاً ذا سحر وعمق استثنائيين. فإن اصطاد الآخرون السرطان في الضحل من مياه السياسة الشرقية، فإنه لم يكن يرى سبباً مانعاً لبحثه عن الرنكة (السردين) الحمراء الجيدة. إنه يذهب بعيداً في المياه العميقة، ولكنه سباح ماهر مجرب. لقد

واجهته مواقف صعبة في كل من فارس ومصر. ولكن أن يمضي ثلاثين سنة في وظيفتين، بانقطاع يسير في دمشق، لدليل على مدى نجاحه. إن بعض الناس يقعون في حب فارس مثلما يفعلون بالجزيرة العربية. ولكن عامة الناس الذين لايفقهون لايدركون معنى مثل هذه العواطف. وثمة ضحية أخرى لهما، من ذوي العهود الطويلة، هو القنصل البريطاني هافارد، معاصر آخر لي عند قدمي " جوني " براون. لقد كان متحدثاً متمكناً من الفارسية، لكنه بخلاف سمارت من النوع العسكري، الذي كان هو قد خلفه في نهاية الأمر كسكرتير شرقي، وشابهه في الانتقال من فارس إلى بلدان عربية. ولا يجوز لي ذكره دون الإشارة إلى زوجته اللطيفة، التي لم يمنعها صممها من أن تصبح الحياة والروح في مجتمع كانت لها عليه السيطرة السهلة. وكانا سويّاً لاعبين ماهرين للبريدج والبوكر.

لقد كان سمارت وهافارد لب الآلة البريطانية. فما من صغيرة ولا كبيرة تحدث في العاصمة أو ما جاورها إلا ويكون لأحدهما أو الآخر بعض العلم بها. وهو شيء حيوي لذلك الرجل الممسك بعجلة القيادة. وذلك الرجل هو السيد نورمان، الذي كان من سوء طالعه أنه كان في ذلك السرج، كما لو كان في وسط النهر. ولم تكن خافية على العيون معاناته في العبور. لقد دهمه الطوفان وهو يجاهد بشجاعة، بلا جدوى، ليبلغ بر الأمان بين إرشادات كان يصرخ بها اللورد كريزول من الضفة. لقد كانت بعض ردوده الشاكية لهذه الإرشادات ذكية وفي صلب الموضوع. لكنها كانت أوهن من أن تنقذ غريقاً. وهكذا، فإن نورمان بعد أن قهرته ظروف لاتطاق ولامه الناس بفشله في تطبيق سياسة لا يمكن أن تطبق، استقال آخر الأمر بكرامة عالية. فهو، كرجل

كاثوليكي متدين، وبكل تأكيد أكثر أناقة من كل من تولى منصب طهران، ربما كان أنسب في ذوقه وخلقه لوظيفة دبلوماسية في أوربا، لا للعنف والتآمر في جو من صنع فارس. لقد كان لي، وبكل تأكيد، شعور قوي بتعاطف زمالة نحوه لظروف لاتختلف في شيء عن تلك التي كانت قد أخرجتني من عدن.

لقد أتيحت لنا، خلال تلك الأيام في قلهك، فرص طيبة لتبادل مذكرات عن الأحوال في بغداد وفارس. وكما علمت خلال الشهور القليلة الأخيرة، أنه كان قد أدرك أن اللعبة تسير في غير صالحه، لكنه ظل يلعب بلا وجل حتى النهاية. لقد كان -وبلا رغبة منه- آخر وزير بريطاني يحاول تشكيل مصائر فارس في نمط بريطاني. ولمعاونته في التزييت العادي للآلة وصيانتها، كان لديه فريق صغير من دبلوماسيين شباب، محترفين - بيتمان، ماليت وآخرون، خليق بي أن أكون شاكراً لهم عطفهم وكرمهم. وينبغي علي أن أضيف أن للسيد نورمان مائدة " سيباري " من الدرجة الأولى. إني لم أر في أي مكان آخر في الشرق طعاماً رائعاً كطعامه - ولا أظن أنه بأي حال من الأحوال بالإمكان الزيادة عليه في باريس نفسها بأيدي مواطني طباخه. . .

وخارج المفوضية، ولكن في صلة وثيقة بها، كانت هناك منظمة بريطانية أخرى، وكان يرجى منها الكثير، وربما كان سيكون فيها نفع كبير لفارس، لولا ذلك الاشتباه الحتمي بأنها لم تكن سوى حلقة في سلسلة الإمبريالية البريطانية. تلك هي اللجنة الاستشارية المالية التي يرأسها السيد (فيما بعد السير سيدني) أرميتاج سميث. وكان معه عدة خبراء في مختلف فروع الإدارة المالية. لكن معظم عمل الاتصال الذي لا غنى عنه وقع على الكتفين العريضين الفكهين للعقيد و. ج. غراي، الذي كان من قبل وكيلنا السياسي في الكويت. لقد كان

متميزاً لقدراته اللغوية الرفيعة. وعلي أن أضيف أنه، وبأي حال من الأحوال، لم يكن أقل اللاعبين تميزاً في لعبة البريدج في طهران آنذاك.

ومن العناصر غير البريطانية المضطلعة بمساعدة فارس لتنهض على قدميها سأخص بالذكر شخصاً واحداً - السويدي الضخم، والمزعج أحياناً، المدير العام للشرطة، التي كانت آنذاك قوة دولية مختلطة، تقوم بمختلف المهام في كثير من أرجاء بلد لاتزال مضطربة صعبة السيطرة. لقد كان لاعباً منتظماً ملازماً لطاولة البريدج - كان لاعباً ماهراً، مغامراً، يخاطر مخاطرات يحجم عنها اللاعب العادي، بهدوء المقامر الفطري، الذي اعتاد على حمل روحه بين يديه في العمل كما في اللعب. لقد كانت له قبضة يد كظلف الخروف، وأطراف أخرى بمقاييس ضخمة تتناسب مع رأس مستديرة مقصرة الشعر جداً. إن شكله المخيف وأسلوبه يخفيان روحاً طيبة سمحة، تظهر في لحظات الاستفزاز الشديد، كأن يتجرأ زميل بالحول بينه وبين فوز محقق بمتابعة اللون نفسه في اللعبة، ويخذله. ولا تخطر بذهني طهران دون أن أتساءل عما آل إليه أمره بعد تلك الأيام.

وفي هذه الأثناء، مضى الوقت سريعاً وممتعاً في آن واحد، ولم يعد هناك سبب مناسب لتمديد عطلتي. فعدت إلى فندق باريس لبضعة أيام، حزمت أثناءها أمتعتي، وعملت ترتيباتي للسفر. ونوعت في الجزء الأول من رحلتي باتخاذ طريق عن طريق قم وسلطان آباد إلى همذان، ومنها سلكت الطريق الذي كنت قد جئت منه. لذا أتيحت لي فرصة زيارة مسجد شاه عبد العظيم عن كثب - نموذج فعلي من الذهب. وقم، على حافة صحراء الملح العظيمة - منطقة تبدو منفردة فعلاً - عمل فني باللون الأزرق، بقعة بديعة بالرغم من

سوقها البالي، المزدحم، ذي الطابع المتخلف، الذي أمضيت فيه بعض الوقت مشترياً بعض الطعام أو أنواعاً من فخارها الأزرق اللماع. ومن هناك اخترقنا التلال إلى سلطان آباد، وهي مدينة كبيرة ذات مظهر أوربي، بشوارعها المتناسقة وبيوتها المشابهة للفلل. وفي واحد من هذه وجدت مدام سفيان وابنتها الكبرى الساحرة، اللاجئتين من الثورة العراقية، اللتين تفكران في العودة إلى بغداد. وكانت استعداداتهما لعمل ذلك قد أوشكت على الاكتمال مما جعلني أوافق بلا تردد على التأخر يوماً أو يومين لأحظى برفقتهما في الطريق. ولم يكن هناك أي توقف في الطريق. وانقضت ليلتان منفردتان في همذان وكرمنشاه مع أصدقاء لعائلة سفيان، وفي اليوم الثالث دخلنا بالسيارة في بغداد، بعد نحو من ثلاثة شهور منذ أن غادرتها لعطلتي في فارس.